مكتبة

أبوليناريا سوسلوفا

مكتبة ٨٤٥

سنواتي مع دوستويفسكي

مذكرات حبيبة عملاق الأدب الروسي

المركز الثقافي العربي

مكتبة | 845
سُر مَن قرأ

أبوليناريا سوسلوفا

سنوائي مع دوستويفسكي

الكتاب
سنواتي مع دوستويفسكي
تأليف
أبوليناريا سوسلوفا
ترجمة
الجيلالي مويري
الطبعة
الأولى، 2021
الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9953-68-984-5
جميع الحقوق محفوظة
© المركز الثقافي العربي
الناشر
المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء ـ المغرب
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651
فاكس: 212 522 305726+
Email: markaz.casablanca@gmail.com
بيروت ـ لبنان
ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 01 750507 ـ 01 352826
فاكس: 961 1 343701+
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

العنوان الأصلي للكتاب:
Apollinaria Prokofievna Souslova
Gody blizosti s Dostoevskim,
1928
مكتبة
t.me/t_pdf
٢٠٢٢٦٦

أبوليناريا سوسلوفا

مكتبة | 845
سُر مَن قرأ

سنواتي مع دوستويفسكي

ترجمة: الجيلالي مويري

المركز الثقافي العربي

إهداء المترجم

إلى رفيقة عمري ودربي هند البوعناني
وإلى ابننا الجميل سامي

مكتبة
t.me/t_pdf

مقدمة المترجم

دوستويفسكي: الوجه الآخر

«لا، لم تكن بولين مجرد امرأة عادية».
دومنيك أربان

«ليس فيودور ميخايلوفيتش إلهاً بالنسبة إليّ فحسب، بل هو إنسان أيضاً، إنسان له ميزاته وعيوبه كباقي البشر... إنسان لم يكن عظيماً طوال الوقت، بل كان في كثير من الأحيان طفلاً مريضاً كثير المتطلّبات، مزاجياً، تصعب الحياة إلى جانبه حين تتلبّسه حالات من عدم الاستقرار...».
آنا سنيتكينا دوستويفسكايا

هذه المقدِّمة ترددتُ كثيراً قبل أن أقدم على كتابتها. ولكن قناعتي بأن الحقيقة لا بدَّ أن تجد من ينشرها يوماً دفعتني، رغم إعجابي الكبير بأدب دوستويفسكي، إلى أن أكتبها للحقيقة وللتاريخ.

ما أكثر عشّاق دوستويفسكي وأدبه في العالم كله، وما أجمل الصورة التي يحتفظون بها عنه في أعماقهم! لكن هل تلك حقيقة

دوستويفسكي، أم أن الرجل كان ككُلّ البشر، وككثير من أبطال رواياته الخالدة: مزيجاً من الخير والشر، ومن الاستقامة والنزوع إلى الانحراف؟

يبدو أن نابوكوف كان على صواب حين قال إن كتابة سيرة شخص ما مستحيلة، مهما حرصنا، ومهما خلصت نيتنا وتعددت مصادرنا وكثرت.

ولعلّ خير مثال على ذلك سيرة دوستويفسكي نفسها. فرغم أن كتّاب السيرة اهتمّوا بسيرته مبكّراً (فقد صدرت أعمال دوستويفسكي الكاملة سنتين فقط بعد وفاته (1883) مرفقة بسيرته بقلم أوريست ميلر وصديقه ستراخوف)، ورغم أن سِيَر دوستويفسكي تعددت بعد ذلك وتنوعت (نكتفي بذكر أهمها: سيرة ليونيد غروسمان الذي عاصرَ زوجة الكاتب وكان الباحث الوحيد الذي أجرى مقابلة معها، سيرة موتشولسكي الضخمة، سيرة جوزيف فرانك الأضخم والتي صدرت في خمسة أجزاء أنفقَ الباحث عشرين سنة في كتابتها، سيرة بيير باسكال، سيرة دومنيك أربان، سيرة هنري ترويا، سيرة إيغور فولغين التي اقتصرت على آخر سنة من حياة دوستويفسكي، سيرة زوجته، سيرة ابنته ليوبوف، سيرة أخيه الأصغر أندريه، وهلمّ جراً...)، رغم كل تلك السير ظلّت أحداث هامة في حياة دوستويفسكي غامضة تدعو للقلق ولا يستطيع الدارسون القطع بصحّتها أو خطئها. نذكر من بين تلك الأحداث الواقعة التي شاهدها دوستويفسكي في صغره في منزل والدَيه ليلاً، فأثّرت في نفسيته حتى قيل إنها أدّت إلى نوبات الصرع التي أصابته فيما بعد، وواقعة قتل والده على أيدي أقنانه، وواقعة استمرار علاقته بالثوار المعارضين

للحكم القيصري إلى آخر أيام حياته رغم تقرُّبه من أكبر رمز من رموز السلطة آنذاك، وواقعة مجامعته لفتاة قاصر في حمّام شعبي أتَتهُ بها إحدى الخادمات، وواقعة طبيعة علاقاته الجنسية مع أبولينياريا سوسلوفا، وواقعة لقائه بعدوه تورغينيف ومصارحته بأنه يكرهه...

لقد استطاعت آنا سنيتكينا، زوجة دوستويفسكي الثانية، أن ترسّخ صورة عن زوجها الكاتب العظيم أقل ما يُقال عنها إنها بعيدة عن الحقيقة. وكان يمكن أن يشفع لها أنها أرادت أن تنقل للأجيال القادمة ما تميّزَ به زوجها من وجه مشرق ومواقف إنسانية خالدة، لو أنها أقدمت على ذلك بعفوية وبحسن نية. والحال أن الأمر لم يكن كذلك.

فمعلوم أن آنا شرعت في كتابة يومياتها بعد زواجهما، وبالضبط بعد اضطرارهما مغادرة البلاد هرباً من الديون وخوفاً من أن يسجَن دوستويفسكي، ومعلوم أنها استمرت في كتابتها إلى حين عودتهما من المنفى الاضطراري على مدى أربع سنوات ما بين سنتَي 1867 و1871، ومعلوم أنها كتبتها بطريقة الاختزال (Sténographie)، ومعلوم أنها اعتمدت عليها بالخصوص حين كتبَت سيرة حياتهما ما بين سنتَي 1911 و1916. لكن ما لا يعلمه أغلب القرّاء هو أن آنا لم تكن وفية في تحويل دفاترها الثلاثة[1] من الكتابة المختزلة إلى كتابة عادية، وأنها لم تحوِّل إلّا دفترَين وأوصت بإتلاف الدفتر الثالث. لماذا؟ ظلَّ السؤال قائماً زمناً طويلاً. ولحسن الحظّ أن

(1) لقد دوّنتْ أربعة دفاتر لكن لم يصلنا منها إلّا ثلاثة، فأتلفتْ دفتراً عمداً، ونقلت دفترين إلى اللغة الروسية أتلفت أحدهما في نسخته الأصلية المختزلة، وأبقت دفتراً في نسخته المختزلة.

الدفاتر لم تتلف، لكن طريقة آنا في الكتابة بالاختزال كانت قد انقرضَت، فلم يستطع أي باحث ممّن اطّلعوا على الدفاتر حلّ رموزها، لا سيما أن آنا، لكي لا يستطيع زوجها قراءة ما تكتبه، لجأت إلى طريقة في الاختزال أعقد من تلك التي كانت قد تعلّمتها. وكان على الباحثين والمتخصّصين أن ينتظروا مبادرة الأكاديمي ميخائيل بافلوفيتش ألكسييف سنة 1960 لفكِّ رموز الدفاتر. وقد انبرَت لهذه المهمّة الصعبة، والتي بدت أول الأمر مستحيلة، الباحثة سيسيليا بوشمسكايا، ولم تنجح إلّا بعد أن تعلمت طريقة آنا في الكتابة بالاختزال. وقد تطلب الأمر ثلاث عشرة سنة كاملة، إذ لم تصدر اليوميات في روسيا إلّا سنة 1973، وفي الترجمة الفرنسية إلّا سنة 1978. وحين صدرت فوجئ الباحثون أن آنا لم تكن أمينة في ما كتبته عن زوجها في مذكّراتها.

أضف إلى ذلك أن آنا عمدت إلى إتلاف جُلّ الرسائل التي تبادلها زوجها مع زوجته الأولى ماريا دمترييفنا إسايفا، فلم تسلّم منها إلّا رسالة وحيدة مؤرَّخة بتاريخ 4 يونيو 1855، وقد شهد البارون فرانكل صديق دوستويفسكي أن هذا الأخير كان يكتب لماريا رسائل كثيرة وطويلة جداً. كما عمدت إلى إتلاف الرسائل المتبادَلة مع عشيقته أبوليناريا سوسلوفا، فلم يسلَّم منها إلا ثلاث رسائل مؤرَّخة بتاريخ 22 و24 أغسطس من سنة 1865 و5 مايو من سنة 1867، أي بعد انتهاء علاقتهما، ورسالة وحيدة إلى أختها ناديجدا سوسلوفا مؤرَّخة بتاريخ 19 أبريل 1865[1].

(1) انظر ترجمة هذه الرسائل في الملحق.

مكتبة
t.me/t_pdf

صحيح أن آنا سنيتكينا قالت عن زوجها إنه «مجرد رجل ذي ميزات وعيوب كباقي البشر ولم يكن ذلك الرجل العظيم طوال الوقت، بل كان في كثير من الأحيان طفلاً مريضاً، كثير المتطلبات، مزاجياً، تصعب الحياة إلى جانبه حين تتملّكه تلك الحالات من عدم الاستقرار»، وأنها كانت تتكفّل وحدها حين تنتابه مثل تلك الحالات بكل متاعب الحياة ومتطلباتها، ومشاكلها، «فأخفي عنه كل مشاكلنا المادية، بل إنني كنتُ أمنع عن نفسي حتى الحق في المرض»[1]. وصحيح أيضاً أنها كانت له سنداً وعوناً في كل لحظات حياتهما، وأن حياته كانت ستنقلب إلى جحيم لولا هدوؤها ورزانتها، وقدرتها على إدارة شؤون البيت ونفقاته. فقد كان دوستويفسكي سلّة مثقوبة كما يقول الفرنسيون، لا يعرف كيف يتصرّف بالمال حين يحصل عليه، فيبدّده كيفما اتفق. وصحيح أيضاً أنها حرصت، بعد موته سنة 1881، على أن يستمرَّ حيّاً في ذاكرة القرّاء والباحثين على حدّ سواء، فأصدرت بين سنوات 1883-1906 ست طبعات لأعماله الكاملة، وتكفّلت بنفسها بالسهر على إنجازها وتسويقها. ونشرت ببليوغرافيا شاملة لأعماله سنة 1906 من أجل الباحثين والدارسين. وناضلت من أجل الحصول على الوثائق المتعلّقة باعتقال زوجها ومراقبته من طرف البوليس السرّي. وكتبت سيرة حياتهما. وأنشأت مدرسة «دوستويفسكي» لتعليم أبناء الفلاحين الفقراء في ستارايا روسا. وأقنعت سوسوف مدير المعرض التاريخي بموسكو، بما اجتمع لديها من وثائق ومن حاجيات دوستويفسكي وكُتُبه، بأن يخصِّص له سنة 1901 جناحاً في المعرض. لكن هل يشفع لها كل

(1) ز. س. كوفريغين، **الأشهر الأخيرة من حياة آنا دوستويفسكايا**.

ذلك، رغم أنه ليس بالقليل الهيّن، أن تقدمَ على ما أقدمَت عليه؟ هل يسمح لها بأن تغيّر ما ورد في يومياتها كي تلمّع صورة زوجها؟

سأتطرق في هذه المقدمة إلى ثلاثة قضايا شائكة أسالت الكثير من المداد وشغلت الباحثين والدارسين، وما زالت تشغلهم إلى اليوم، قضايا اختلفوا حول صحّتها وحول تفسير ما غمض منها، وهي قضايا تغاضت عنها آنا سنيتكينا حين كتبَت سيرة حياتهما بسبب حساسيتها وخطورتها.

1- رسالة ستراخوف إلى تولستوي بخصوص دوستويفسكي

تعرّف ستراخوف، وهو فيلسوف وناقد أدبي ذو تكوين علمي في الأصل، إلى دوستويفسكي بعد عودته من منفاه بسيبيريا في بداية سنة 1861، أي قبل سنة واحدة من علاقة دوستويفسكي بأبوليناريا سوسلوفا، وقد توطّدت صداقتهما طوال السنوات التي اشتغل فيها دوستويفسكي بالصحافة في مجلتَي **الزمن** و**العصر** إلى جانب أخيه ميشيل، واستمرّت إلى أن مات دوستويفسكي، رغم أن ستراخوف نشرَ في مجلة **الزمن** مقالاً عن القضية البولندية أدّى إلى مصادرة الصحيفة ومنعها من الصدور، ما أدّى إلى تفاقم مشاكل الأخوَين المادية، وإلى فتور وخلاف بين دوستويفسكي وستراخوف.

كتبَ دوستويفسكي لزوجته في رسالة سنة 1875، أن ستراخوف:

«... شرير، ولا شيء غير ذلك... لقد تخلّى عني حين توقّفت مجلة **الزمن** عن الصدور، ولم يعد إلى الاتصال بي إلّا بعد نجاح **الجريمة والعقاب**».

فهل تخلّى ستراخوف عن دوستويفسكي آنذاك حقاً؟

كتبَ ستراخوف رسالة إلى أخيه يشكو إليه وضعه كمحرِّر في مجلة **العصر** التي أصدرها الأخوان دوستويفسكي بعد مصادرة مجلّتهما الأولى، جاء فيها:

«إن الرقابة مصرّة على رفض نشر مقالاتي... وإن العلاقة بيني وبين الأخوَين دوستويفسكي يسودها الخلاف المستمر. ففيودور شديد الأنانية لا يهتمّ إلّا بذاته ولا يعي ذلك، أما ميشيل فيعرف أين تكمن مصلحته ويستغل الآخرين...».

واضح إذاً أن ستراخوف لم يتخلَّ عن دوستويفسكي بعد منع مجلة **الزمن** من الصدور، وأن الرقابة هي التي كانت تقف دون نشر مقالاته في مجلة **العصر** بسبب مقالاته عن القضية البولندية التي عبّرَ فيها عن رأي يخالف رأي النظام القائم.

يقول جاك كاتو على هامش شرحه لرسائل دوستويفسكي:

«خلال عملهما المشترَك في مجلتَي **الزمن والعصر**، كان دوستويفسكي وستراخوف يتشاوران في أمر المجلتَين كل يوم، عند نهاية الفترة الصباحية وفي المساء بعد الساعة السابعة، وقد كتبَ ستراخوف في مذكراته: «إن علاقتنا آنذاك رغم طابعها الثقافي في الغالب، كانت علاقة وطيدة»».

وكتب في مكان آخر أن تعصُّب ستراخوف لأفكاره ومعارضته لآراء دوستويفسكي كانت تؤدي إلى نوع من الفتور في علاقتهما أحياناً.

لكن ذلك الفتور لم يكن يستمرّ فيما يبدو، لأن دوستويفسكي كان يقدّرُ ستراخوف حقاً، ولو لم يكن الأمر كذلك لما اختاره من

بين جميع أصدقائه كي يبعث إليه برسالة من إيطاليا، وكان آنذاك صحبة عشيقته أبوليناريا، يرجوه فيها أن يتوسّط له لدى الناشر كي يبعث إليه بثلاثمئة روبل. ولمَا طلب منه في رسالة قصيرة سنة 1867 أن يكون شاهداً على زواجه بآنا، ولما استمرَّت صداقتهما طوال حياة الكاتب بل حتى بعد موته. ألم تختره آنا رغم ما قاله عنه زوجها لكي يكتب سيرته بالاشتراك مع أورست ميللر، ونشرتها ضمن أول أعمال كاملة لدوستويفسكي سهرَت على إصدارها سنة 1883؟ أوَلم يكن دوستويفسكي يحرص على استضافة ستراخوف ومايكوف في منزله إلى حين وفاته؟

أضف إلى ما سبق أن دوستويفسكي بعثَ إلى ستراخوف بين سنتَي 1862 و1874 ما لا يقل عن خمس وعشرين رسالة. وكان لا يتردّد في أن يطلب منه أن يبعث إليه عبر البريد ما يصدر من كُتب قيّمة في روسيا، ومنها على سبيل المثال رواية **الحرب والسلم** التي صدرت في ستة أجزاء. كما أن ستراخوف كان لا يتردّد في كتابة مقالات حول ما يصدره دوستويفسكي من أعمال، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر مقاله حول رواية **الزوج الأبدي** الذي عبّر فيه عن إعجابه.

السؤالان اللذان يطرحان نفسيهما بحدّة الآن هما: لماذا حرص دوستويفسكي على استمرار صداقتهما رغم رأيه الصريح فيه؟ ولماذا لجأت آنا إلى ستراخوف بالذات كي يساعدها على إنجاز الأعمال الكاملة لدوستويفسكي سنة 1883 مرفقة بسيرة الكاتب ومذكرات ستراخوف عن دوستويفسكي و147 رسالة مختارة، رغم أنها تعلم رأي زوجها فيه؟

وما الذي حدث بالضبط كي يلجأ ستراخوف بعد نشر مذكّراته

ضمن أعمال دوستويفسكي الكاملة سنة 1883 إلى كتابة رسالة إلى تولستوي حول دوستويفسكي في 26 أكتوبر من العام نفسه، أي بعد مرور حوالي سنة على نشره سيرة دوستويفسكي ضمن الأعمال الكاملة؟ ولماذا لم تنشَر الرسالة على صفحات مجلة **العالم المعاصر** إلّا في عدد أكتوبر من سنة 1913؟ ولماذا قالت آنا إنها لم تسمع بالرسالة إلّا بعد عام من نشرها؟ وهل يعقل أن لا تسمع شيئاً عن تلك الرسالة إلّا بعد عام من نشرها وقد كانت حريصة كل الحرص على تتبُّع كل ما ينشَر عن زوجها؟ ألم تعمد إلى نشر ببليوغرافيا شاملة لكلِّ ما صدر عن دوستويفسكي سنة 1906 كما سبقت الإشارة؟ أيعقل أن لا تسمع شيئاً عن اتّهام خطير يستحيل أن لا يثير انتباه القرّاء والمثقفين على حدّ سواء آنذاك؟ أيعقل أن لا تسمع بها وقد باحَت لليونيد غروسمان أنها لم تعش بعد موت زوجها إلّا من أجل تخليد ذكراه، وأن أصدقاءها بعد موته كانوا أصدقاء زوجها أنفسهم قبل وفاته؟

حكى ليونيد غروسمان أن آنا قالت حين علمَت بنشر تلك الرسالة:

«شعرتُ بغضب شديد حين علمت بما كتبه، يا له من افتراء لا يُصدّق!... لو كان نيكولاي نيكولايفيتش لا يزال حياً، لذهبت إليه وصفعته عقاباً له على دناءته».

وأضافت متسائلة مستغربة: ألم ينشر مقالاته على مجلتَي دوستويفسكي وأخيه على مدى عشرة أعوام؟ ألم يكن الصديق الذي يثق فيه دوستويفسكي ويحميه؟ لماذا لم يرفض كتابة سيرة فيودور ميخايلوفيتش إذا كان يشعر بالتقزُّز من كتابتها؟ كيف يصف فيودور ميخايلوفيتش بالأنانيّ وقد حرم نفسه طوال حياته من المال ليبعث به

إلى أسرة أخيه بعد وفاته؟ كيف يصف دوستويفسكي بالشرير، وقد سهرَ على مساعدة مراسليه دوماً، وكان يطلب من شخصيات وازنة أن تساعدهم وتدعمهم؟ أما بخصوص ما وقع في الحمّام فليس إلا خبراً ممّا نُشرَ في الجرائد استغلّه فيودور ميخايلوفيتش في رواية **الشياطين**...

ويبدو أن آنا بالغت في الدفاع عن زوجها، فقد كان دوستويفسكي مزيجاً من الطيبة والشر، من الإخلاص والأنانية، من نبل الأخلاق والميل إلى النزوات الصغرى. لكنه كان يعرف كيف يتحكم ما بداخله من شرّ. لا شكّ أنه لم يقترف تلك الجرائم التي نسبها إلى أبطاله، ولكنه حلمَ بها وعاشت معه في مخيلته. بل لقد تلبّسته في كثير من الأحيان (يكفي أن نعود إلى مسودات رواياته الشهيرة المنشورة في مجموعة لابلياد)، وحاول أن يتخلّصَ منها بكتابتها. وإذا كان دوستويفسكي قد استطاع أن يرقى إلى هذه الدرجة من العظمة، فلأنه كان مزيجاً من النبل ومن الضعف البشري. لقد عاشَ طوال حياته شخصاً مزدوجاً قادراً على أن يصيح في وجه تورغينيف إنه يمقته وعلى أن يرسم له صورة كاريكاتيرية ساخرة في رواية **الشياطين**، ولكنه كان قادراً أيضاً أن يلجأ إليه عند الحاجة كي يقترضَ منه مالاً. ولعلّ هذه الازدواجية هي التي حدت به أن يكتب في آخر سنوات حياته عن فكرة رواية **المُزدَوج** التي أصدرها في بداية حياته الأدبية، بأنها أعمق فكرة طرحها في سوق الأدب وأكثرها تميُّزاً وجدّة. ألم يقل في رسالة كتبها إلى ي. ف. يونغيه[1] سنة

---

(1) يكاترينا فيودوروفنا يونغيه، رسّامة وناقدة أدبية، زوجة طبيب العيون الذي عالج دوستويفسكي.

1880: «إن الازدواجية التي تشعرين بها هي نفسها التي شعرت بها أنا نفسي طوال حياتي. إنها معاناة كبرى، لكنها متعة كبرى أيضاً، ودليل على وعي حاد»؟

وإليكم الآن ما أثارَ غضب آنا في تلك الرسالة الشهيرة:

«أكتب إليك يا ليف نيكولايفيتش الغالي رسالة قصيرة وإن كان موضوعها غنياً... لا شكّ أنك توصّلت بسيرة دوستويفسكي التي كتبتها (وأتمنّى أن تشملها برعايتك واهتمامك). إنني أطلب منك رأيك فيها. وأودُّ، بهذه المناسبة، أن أبوحَ إليك بشيء. أثناء كتابتي لهذه السيرة كان عليّ أن أقاوم الاشمئزاز الذي أشعرُ به، وقد حاولت أن أتغلب على هذا الشعور القبيح. ساعِدْني أن أجدَ مخرجاً، فأنا لا أستطيع أن أعتبر دوستويفسكي رجلاً طيباً سعيداً (وهما في الحقيقة صفتان متلازمتان). لقد كان دوستويفسكي رجلاً شريراً، حسوداً، ذا نزوات، قضى حياته كلها فريسة تقلُّبات لا شكّ أنها جعلت منه شخصاً مثيراً للشفقة بل حتى للسخرية، وما كان لينجو من ذلك لولا ما عرف عنه من شرّ وذكاء... لقد كان منجذباً إلى النزوات ويفتخر بذلك. فقد رأيته بأمّ عيني في سويسرا وهو يعامل النادل معاملة من السوء بحيث أنه شعر بالإهانة، فقال له: «ألست إنساناً أنا أيضاً؟!». وحكى لي فيسكوفالوف يوماً (وهو أستاذ جامعي في يورينيف) أنه تبجّح يوماً باختلائه في حمّام بفتاة قاصر أتَته بها إحدى الخادمات. ولعلّ الشخصيات الأكثر شبهاً بدوستويفسكي من بين أبطاله هي: بطل **مذكرات قبو**، وسمرديكوف في **الجريمة والعقاب**، وستافروجين في **الشياطين**. كان يمكن أن أسمح لنفسي بذكر هذه الجوانب من شخصية دوستويفسكي، فقد

كانت هناك عدة وقائع أخرى أعرفها غير الواقعة التي حكيت لك تدعمُ ما أقول، وكان يمكن أن يكون كلامي، في هذه الحالة، أكثر صحّة. ولكن سُحقاً للحقيقة، ولنستمر في الكلام عن الجانب المشرق من الوجود كما نفعل دائماً، وفي كل المناسبات».

وقد ردَّ تولستوي على رسالة صديقه ستراخوف برسالة جاء فيها:

«أخبرتني أنك تصالحت مع تورغينيف، وها أنا ذا قد أصبحت أحبه كثيراً الآن. يا للعجب، إنني أحبه حقاً لأنه مسالم ويمضي بك إلى الطريق القويم، وليس كأولئك المستخفّين بكل شيء، أولئك الجموحين الحرونين الذين لا يمضون بك إلا إلى الهاوية. سيبقى تورغينيف حياً في أذهان القرّاء، أما دوستويفسكي فسيختفي منها».

وبعد مرور سنة كاملة على نشر هذه الرسالة، كتبَ تورغينيف رسالة إلى سالتيكوف، وهو أحد ألد أعداء دوستويفسكي، في 6 أكتوبر من سنة 1884، جاء فيها:

«لقد أصاب نيكولايفيتش ستراخوف في ما قالَهُ. وقد كان يمكن أن يتحدث عن الشبه الموجود بين دوستويفسكي وماركيز دي ساد... ذلك الشبه الذي لم يمنعهم من الصلاة على روح دوستويفسكي التي عرفَت كيف تحب الإنسانية».

ولعلّ السؤال الذي يطرح نفسه الآن بإلحاح هو: لماذا صدّقَ تولستوي ستراخوف رغم أنه كان يقدّر دوستويفسكي وزوجته؟ ألم يقل عنها يوماً إن الكثيرين يغبطون دوستويفسكي على زوجته؟ لا شكّ أن تولستوي لم يلتقِ بدوستويفسكي قط، لكن ذلك لا يجب أن يؤوّل على أنهما كانا يرفضان اللقاء لأن كل واحد منهما كان يكره الآخر. لقد كتبَ دوستويفسكي الكثير عن أعمال تولستوي حين صدورها، وبعثَ

تولستوي إلى صديقه ستراخوف رسالة في 26 سبتمبر من سنة 1880، جاءَ فيها: «كنتُ مريضاً خلال الأيام الماضية وأعدت قراءة **مذكرات من البيت الميِّت**. لا يوجد كتاب أعظم من هذا الكتاب في الأدب الحديث، بما في ذلك كتب بوشكين... إذا التقيتَ بدوستويفسكي فقُل له إني أحبه». وقد كان آخر كتاب انهمكَ تولستوي في قراءته قبل موته هو رواية **الأخوة كارامازوف**. بل لقد بلغ تولستوي من الإعجاب الخفي المتكتّم بدوستويفسكي أنه كان يعلق في مكتبه نسخة من اللوحة نفسها التي يعلقها دوستويفسكي في مكتبه: عذراء سيستين للرسام رافائيل. أيوجدُ إعجاب أكبر من هذا الإعجاب؟

إنني لأجد صعوبة قصوى في فهم سبب إصرار ستراخوف على بعث تلك الرسالة إلى تولستوي، رغم معرفته بأن الرجل يحب دوستويفسكي. هل كان ضميره يعذّبه حقاً لأنه كتمَ تلك الحقيقة التي لا ينبغي أن تكتم؟

لقد اختلفت آراء النقّاد والباحثين بخصوص هذه الرسالة بين مصدِّق ومكذِّب لما جاء فيها، وساقَ كل فريق عدداً من الأدلّة على صحّة رأي ستراخوف أو عدم صحّته. ولكن السؤال سيبقى قائماً دائماً: لماذا كتبَ ستراخوف هذه الرسالة ولم يكن من أعداء دوستويفسكي؟ ولماذا ردَّ عليها تولستوي بأن وصف دوستويفسكي بما وصفه وهو يحبه؟ لا شكّ أن ستراخوف كان من بين أصدقاء تولستوي المقرّبين، ولا شكّ أنهما كانا يتراسلان باستمرار، لكن هل يكفي ذلك كي يصادق تولستوي على كلام ليس متأكّداً من صحّته؟ ولماذا تدخّل تورغينيف الكاتب العظيم في الموضوع هو أيضاً، وقارنَ أخلاق دوستويفسكي بأخلاق ماركيز دي ساد؟

إنها لأسئلة محيّرة حقاً.

قال رومان غاري: «إن الجواب تعاسة السؤال». نعم، إن الجواب حين لا يستطيع أن يستند إلى ما يكفي من الأدلة الواضحة غير المتناقضة، لا يمكن أن يكون إلا جواباً تعيساً عن سؤال يبحث عن حقيقة غائبة ربما دفِنَت مع صاحبها إلى الأبد.

2- دوستويفسكي مذنب أم بريء؟

على الساعة الثالثة صباحاً من يوم الجمعة 22 أبريل من سنة 1849، اقتحم البوليس منزل بتراشيفسكي، واعتقلَ ثلاثة عشر شخصاً من بينهم دوستويفسكي، وفتّشَ المنزل وحملَ ما فيه من الكُتب والأوراق إلى مقرّ الشرطة.

كان البوليس قد ارتابَ في تلك الاجتماعات التي تقيمها جماعة بتراشيفسكي في منازل مختلفة، واعتقدَ أن أفرادها يخطّطون للقيام بشيء ما ضدّ النظام القيصري الحاكم، فبعث إليهم بمن انضمَّ إلى جماعتهم كي يتجسّس عليهم.

فهل كانت الجماعة تخطّط لشيء ما حقاً؟

كل الوثائق لم تشهد إلّا بأن أفراد الجماعة كانوا من أنصار الفكر التقدُّمي الحر، ومن دعاة نبذ النظام العبودي، وتحسين ظروف عيش الفقراء. وليس هناك ما يثبت أن أفراداً ضمن الجماعة كانوا يخطّطون للحصول على آلة لطبع المنشورات السرّية المعادية للنظام القيصري.

أما التُّهم التي وجِّهَت إلى دوستويفسكي فكانت واهية، إذ اتُّهم بقراءة رسالة بلنسكي التي وجّهها إلى غوغول بمناسبة صدور مختارات من أعمال هذا الأخير، رسالة ينتقد فيها غيبية غوغول

t.me/t_pdf

ورجعيته. وبقراءة قصيدة «عزلة» لشاعره المفضل بوشكين وتشديده على المقطع الآتي:

هل سنرى الشعب يوماً محرّراً
والعبودية بيد واثقة مدمَّرة
وهل تشرق على بلدنا طرّاً
شمس الحرية المنتظَرة؟

وبقراءة بعض المقاطع من روايته: **نيتوتشكا نزفانوفا**.

فهل كان ذلك كافياً كي يصدر في حقّ دوستويفسكي وأفراد الجماعة جميعاً حُكم بالموت شنقاً؟ هل كان كافياً كي يتلاعب البوليس بأعصاب أعضاء الجماعة، فيسوقهم إلى حيث سينفّذ فيهم حكم الإعدام شنقاً؟ هل كان كافياً كي يُصفّوا أمام المشنقة وأن تعصب عيونهم، ويتوقف تنفيذ حكم الإعدام في آخر لحظة، ليتحول إلى أحكام مختلفة بالسجن؟ وهل كان عدلاً أن يكون نصيب دوستويفسكي من تلك الأحكام أربع سنوات سجناً بسيبيريا مع الأشغال الشاقة، يتحول بعدها إلى مجرد جندي في سيبيريا على مدى ست سنوات؟ هل كان عدلاً أن يختفي اسم دوستويفسكي من على صفحات الكُتب والصحف والمجلات عشر سنوات كاملة؟ هل كان عدلاً أن يحرَم في السجن حتى من القراءة، فلا يُسمح له إلّا بقراءة الإنجيل؟

مهما يكن الأمر، لقد كان على دوستويفسكي أن يتحمّل السجن، وقد تحمّله. ولكن يبدو أن نوبات الصرع التي ستلازمه دوماً قد بدأت تظهر عليه هناك بين مجرمين غلاظ قساة، كان عليه أن يعيش بينهم كل لحظة من لحظات حياته على مدى أربع سنوات كاملة.

ويبدو أن دوستويفسكي لم ينسَ أبداً ما عاقبه به النظام القيصري المستبدّ. لكنه استوعب الدرس جيّداً. وأدرك أن مواجهة مثل هذا النظام لا تكون بواسطة شرذمة أفراد حالمين معزولين. ففضّل أن يواجهه بالكتابة الأدبية، وببثّ الأفكار التي من شأنها أن تصل إلى الجميع وتدعوهم إلى التفكر في وضع الإنسان في روسيا، وفي معاناته، وبمساندة كل من يدعو إلى الحرية والتحرر.

ويبدو أن البوليس السري لم يكن يثق في دوستويفسكي وفي أفكاره وكتاباته المناصرة للفقراء الداعية إلى تحرير الأقنان من العبودية، لذلك لم يتوقف عن مراقبته إلا سنة 1875، أي بعد خمس عشرة سنة من العقوبة التي صدرت في حقه كما تشهد وثائق البوليس، بل إن دوستويفسكي شكَّ في أن تكون تلك المراقبة قد رفعت عنه حقاً، فكتب إلى وزارة الداخلية سنة 1880، أي سنة واحدة قبل وفاته، رسالة جاء فيها: «خلال شتاء 1874-1875 حين كنت أقطن في ستارايا روسا علمت من الضابط أني ما زلت تحت المراقبة. لقد مضت خمس وعشرون سنة على حصولي على العفو وعلى حقوقي المدنية، ولقد عبّرت في مئات الصفحات عن قناعاتي السياسية والدينية وهي قناعات من الوضوح بحيث لا يمكن (أو هذا ما أتمنّاه على الأقل) أن تدعو إلى أي نوع من الشكّ فيما يتعلق بأخلاقي السياسية. لذلك أطلب منكم أن ترفعوا عني المراقبة».

ما هي يا ترى تلك القناعات والأفكار السياسية التي دافع عنها دوستويفسكي بعد خروجه من السجن؟

كتب دوستويفسكي في **يوميات كاتب** عدد يوليو-أغسطس 1877 ما يلي:

«كثير من قناعاتي تعبِّر عن انتمائي إلى التيار السلافي، لكن ربما أني لا أنتمي إلى التيار السلافي كل الانتماء».

وقال جان درويي في خاتمة رسالة الدكتوراه التي خصّصها لفكر دوستويفسكي السياسي والديني:

«ككاتب سياسي يبدو دوستويفسكي متناقضاً لا يمكن تصنيفه لا ضمن اليمين ولا ضمن اليسار».

واضح ممّا سبق أن دوستويفسكي لم يكن يهمّه من السياسة إلّا ما يبثه في كتاباته من حقد على النظام القيصري بغضّ النظر عن الانتماء إلى طرف أو إلى آخر، لأن ذلك لا يخدم مصالحه وخُططه. وواضح أيضاً أن تناقضات دوستويفسكي وعدم تورُّعه من التقرُّب إلى أقرب المقرّبين إلى النظام (صداقته مع الأمير موتشورسكي، وقسطنطين بوبودونوسيف وهو عضو في المجلس الاستشاري الإمبراطوري ومعلِّم أطفال القيصر ألكسندر الثاني)، كانت تضمن له نوعاً من الحماية والتقية يسمحان له بتمرير بعض أفكاره المعارضة للنظام القائم. ولعلّ خير دليل على ذلك ما حصل يوم 19 فبراير 1880، يوم دُعي دوستويفسكي أن يقرأ كلمة الجمعية السلافية الخيرية بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لاعتلاء ألكسندر الثاني للعرش، فقرأ أمام القيصر كلمة محمّلة بقناعته حول قوى الشباب الضائعة المنحرفة عن وعي وإرادة، وعن ضرورة سيادة الحرية الكاملة لا الشكلية في المجتمع، ما حدا بالقيصر أن يعلّق على كلمة دوستويفسكي مازحاً: «ألم أقل في ويم من الأيام إن الجمعية السلافية متواطئة مع العدميين». لكنها مزحة تعني ما تعنيه حين نعلم أن المقصود بالعدميين الإرهابيون الذين كانوا يحاربون النظام القائم

بالقنابل وباغتيال رموزه. أضف إلى ذلك أن فكَّ رموز الاختزال في يوميات زوجته آنا كشفَ أن هذه الأخيرة تلاعبَت بما ورد في يومياتها ورسمَت لزوجها في كتابها عن سيرة حياتهما صورة رجل غيور على النظام القائم، مواظب على الذهاب إلى الكنيسة، تلك الصورة التي انتقلَت إلى الأجيال التالية ورسّخت في الأذهان حقيقة صنعتها آنا عن قصد. والحال أن دوستويفسكي يبدو في يومياتها رجلاً مستخفّاً بالكنيسة، منتقداً للنظام القيصري، مواظباً على قراءة كل ما يكتبه معارضو النظام في الخارج، رجلاً التقى في المنفى بهرتزن وقرأ مؤلفاته، وبباكونين، وهما من أكبر معارضي النظام القيصري.

فهل كان دوستويفسكي الحاقد على النظام القائم، الغاضب من الوضع السائد، على صلة ما بهؤلاء الإرهابيين؟

إن مجرد طرح مثل هذا السؤال يبدو ادعاء خطيراً. لكن ألا يصبح سؤالاً مشروعاً تماماً حين نعلم أن أحد أكبر الإرهابيين كان جاراً لدوستويفسكي يوم قبض عليه؟

وإليكم الوقائع:

يوم الخامس والعشرين من شهر نوفمبر 1881، ألقى البوليس السري القبض على باراتينوف، وهو واحد من أخطر الإرهابيين المؤسّسين لحزب سري إرهابي يُدعى «إرادة الشعب»، وهو حزب اتّخذ من اغتيال الشخصيات الوازنة في روسيا والتفجيرات وسيلة إرهابية لزعزعة النظام القيصري وتقويض أُسُسه.

كان باراتينوف قد أصبح إرهابياً في سن الثامنة عشرة، وشارك في عدة اغتيالات وتفجيرات. وكان رأسه مطلوباً لدى السلطات التي كانت تعرف أنه يتخذ من الأسماء المستعارة وسيلة للتخفي. ويوم

ألقيَ القبض عليه إثر وشاية كان متخفياً تحت اسم «ألافوزوف»، ويسكن في شارع الحدادين 5 الشقة 11، أي في العمارة نفسها التي يسكن فيها دوستويفسكي الذي كان يسكن في الشقة 10.

هل كان دوستويفسكي يعرف أن جاره ألافوزوف هو الإرهابي باراتينوف، وهل كان على علاقة به؟ ليس لدى الباحثين أي دليل على ذلك. لكن أحد أصدقاء باراتينوف حكى أنه رافقه يوماً إلى مقرّ سكنه، ولاحظَ أنه كان هادئاً مطمئناً وهو يسير في حي الحدادين وكأن شيئاً ما يمنحه الأمان. واضح إذاً أن باراتينوف كان يعرف أن جاره هو دوستويفسكي الكاتب الشهير. أكثر من هذا، لقد أكّدَ شهود عيان أن امرأة كانت تتردد على منزل باراتينوف، وتبيّن فيما بعد أن اسمها آنا بافلوفنا كوربا، وهي من ضمن من التحقوا بحزب «إرادة الشعب» السري منذ تأسيسه سنة 1879، وأصبحت عضواً في لجنة الحزب التنفيذية التي كانت تتضمن سبعة عشر عضواً، وكانت تعرف دوستويفسكي ويعرفها، فقد سبق أن كتبت إليه رسالة سنة 1876، جاء فيها:

«ها قد انتهى الخلاف (الذي كان بين الشعب والأنتلجنسيا) الذي ربما لم يكن إلّا من وحي الخيال. لقد ابتعدت طبقتنا عن الشعب لأنها لا تعرفه، أو لم تعد تعرفه، وها هي اليوم تنضم إليه...».

هل ردَّ دوستويفسكي على رسالتها؟ من دون شكّ، فقد كانت عادة دوستويفسكي أن يرد على هذا النوع من الرسائل، لكن الرسالة لسوء الحظّ ضاعت. ومهما يكن الأمر، فإن صوفيا لورييه، وهي إحدى مراسِلات دوستويفسكي، ذكرت في إحدى رسائلها أن هذا

الأخير كان يعرف جيّداً آنا كوربا. فهل كان بين كوربا ودوستويفسكي رسائل متبادَلة بعد تلك الرسالة الأولى؟ وهل سبق لهما أن التقيا؟ لا شيء لدينا ممّا يؤكد ذلك أو ينفيه. كل ما نعلمه أن آنا كوربا لم تذكر اسم دوستويفسكي إلا مرة واحدة في معرض كلامها عن تكوينها النفسي: «إن أفكاري المناصرة للشعب تطورت بتأثير من كتابات لافروف، وبيرفيفلوفسكي، ومن بعض كتب دوستويفسكي». لا شكّ أن كوربا كانت تتمنى أن تلتقي يوماً بمن أثّروا في فكرها. وقد سنحت لها الفرصة أن تزور دوستويفسكي خلال تردُّدها على منزل باراتينوف. فلماذا لم تزره وقد كان جاراً لمن تعقد الاجتماعات السرية في شقته؟ هل كانت لديها تعليمات بأن لا تقدم على ذلك حتى لا تثير الانتباه إلى دوستويفسكي وعلاقته المحتملة بحزب «إرادة الشعب» السري؟ مرة أخرى لا نستطيع أن نجزم بشيء، بل إن كل ما لدينا من كتابات دوستويفسكي يشهد أنه ضدّ الإرهاب، ما يجعل الإجابة عن مثل هذا السؤال جدّ معقّدة في غياب أدلة ملموسة.

ولنعد الآن إلى باراتينوف الذي أتى البوليس لتفتيش شقته بعد منتصف الليل. وقد كانت الإجراءات المعمول بها آنذاك أن يحضر قاطنو العمارة عملية التفتيش، إلّا أن دوستويفسكي لم يحضر تفتيش الشقة رفقة السكّان رغم أنه كان موجوداً في شقته، ورغم أنه لم يكن نائماً (معلوم أن دوستويفسكي كان يسهر حتى ساعة متأخِّرة من الليل كي يكتب، ولا يستيقظ إلا بعد منتصف النهار). ويقول المحضر رقم 83 الذي حرِّرَ بعد نهاية التفتيش: «عمدت بحسب قانون 19 مايو 1871 إلى تفتيش دقيق لممتلكات السيد ألافوزوف، إلا أن التفتيش

لم يؤدِّ إلى العثور على أي شيء مرتبط بالإجرام. . .». ويعلق إيغور فولغين صاحب كتاب **آخر سنة من حياة دوستويفسكي**: إنه لشيء نادر حقاً أن لا يعثر البوليس على أي شيء مرتبط بالإرهاب في منزل إرهابي. ويضيف: ألا يمكننا أن نفترض أن ساكن الشقة 10 (دوستويفسكي) لمّا علم بأمر عزم البوليس على تفتيش الشقة 11، تسلّل إليها وحمل إلى شقته حملاً ثقيلاً كي يخفيه في منزله، وهو ما تطلّب منه مجهوداً جسدياً كبيراً أدّى إلى تمزُّق في أحد أوعية رئتيه، وإلى نزيف حادّ سيكون في النهاية سبباً في وفاته بعد يومين فقط من تفتيش شقة الإرهابي؟

لا شيء لدينا يؤكد هذا الافتراض، إلّا أن إصابة دوستويفسكي في تلك الليلة نفسها بنزيف حادّ أدى إلى وفاته بعد يومَين يجعلُ التساؤل مشروعاً، لا سيما إذا علمنا أن زوجته في مذكّراتها، حين أرادت أن تفسِّر سبب النزيف، أوردت عدة تفسيرات متناقضة. فقد أكدت أول الأمر أن زوجها حمل «كرسياً ثقيلاً» فتمزّقت أحد أوعية رئتيه إثر ذلك. ثم شطبت على عبارة «كرسي ثقيل»، وعوّضتها بـ«رفّ خزانة ثقيلة»، ولم تذكر السبب الذي دفع دوستويفسكي إلى تحريك الخزانة من مكانها، ثم عادت وأضافت السبب، فكتبت أن دوستويفسكي أخبرها بعد استيقاظه على الساعة الواحدة بعد الزوال كعادته أن غطاء قلمه سقط منه وتدحرجَ خلف الخزانة، ما دفع به إلى أن يحرِّكها كي يعثر على الغطاء، ثم أضافت في النهاية، كي تفسِّر سبب بحث زوجها عن الغطاء خلف الخزانة رغم أنه مجرد غطاء، بأن دوستويفسكي كان يستعين بذلك الغطاء على لف سجائره التي يدخّنها طوال الليل، وأنه أحسَّ بقليل من الدم يصعد إلى بلعومه.

وأضافت أنه أخبرها أن كمية الدم التي صعدت إلى بلعومه كانت قليلة جداً بحيث أنه لم يعرها أي اهتمام ولم يفكّر في أن يوقظها ليخبرها بما وقع. وأنها بعثت ببير بعد أن استيقظ زوجها وعلمت بما وقع كي يأتي بالطبيب، إلا أن هذا الأخير كان قد خرج لزيارة مرضاه ولن يعود إلّا عند الساعة الخامسة.

فلماذا كل هذه التعديلات والتغييرات؟ ولماذا ادّعت في كتابها الذي كتبته عن حياتهما الزوجية على مدى أربعة عشر عاماً أن رجلاً طيباً ممن يرتاح إليهم زوجها ويعزّهم -وإن كان عيبه أنه يحب النقاش الحادّ- زارهم على الساعة الثالثة ظهراً فأخذا يتناقشان حول المقال الذي سيصدر في الجريدة ويختلفان، وترتفع أصواتهما، وقد حاولت أن تهدئهما، لكن دون فائدة، وأن نزيف زوجها بالليل احتدَّ أثناء الغداء، بينما الحقيقة أن الزائر يومئذ لم يكن رجلاً بل امرأة؟ وهي أخت دوستويفسكي، وهو ما ورد في رسالة كانت آنا نفسها قد بعثت بها إلى ستراخوف في 21 أكتوبر 1883، أي شهر واحد قبل رسالة ستراخوف إلى تولستوي: «الحقيقة أن أخت دوستويفسكي فيرا ميخايلوفنا هي التي أتَت من موسكو لزيارتنا (وهو نفس ما ورد في سيرة دوستويفسكي التي نشرتها ابنته ليوبوف بالفرنسية سنة 1922، وإن كانت سيرة غير نزيهة وتحتوي على كثير من المغالطات)، فتناقش دوستويفسكي مع أخته بخصوص قضية الإرث فاحتدَّ النقاش بينهما، وانسحب دوستويفسكي إلى مكتبه وهناك اشتدَّ النزيف». وشرحت في الرسالة نفسها سبب وفاة دوستويفسكي: «كان فيودور ميخايلوفيتش يعاني خلال السنوات التسع الأخيرة من حياته من مرض انتفاخ الرئتين (الأمفوزيم)، أي من التهاب الشرايين التنفسية المصحوب

بإفرازات مفرطة، وقد كان تمزُّق أحد تلك الشرايين التنفسية -وهو احتمال لم يتوقعه الأطباء- سبباً في وفاته».

إننا أمام واقعة مؤكدة، واقعة النزيف الذي أصابَ دوستويفسكي فجأة، وأدّى إلى وفاته بعد يومَين فقط. لكن سبب ذلك النزيف فسَّرَ تفسيرات مختلفة متضاربة، ما يدفعنا إلى أن نتساءل: لماذا كانت آنا في حاجة إلى كل تلك التفسيرات المتضاربة؟ وهل كانت تعلم أن سبب النزيف شيء آخر غير ما أوردته في مذكراتها؟

مرة أخرى أقول إننا لا نستطيع أن نجزم بشيء، وإننا لم نتوصّل إلى حقائق أو وثائق تؤكد صلة دوستويفسكي بالذين كانوا يخطِّطون لإسقاط النظام القيصري الحاكم، ونجحوا في النهاية بعد وفاة الكاتب، وإننا لا نملك أمام كل هذه التناقضات التي تثير الشكّ في نفس الباحث إلا التساؤل. ولكن ينبغي أن نعترف أن الأمر يبقى محيّراً رغم ذلك.

ولعلّ ما يثير الانتباه أن قضية اعتقال جار دوستويفسكي، وما تلاها من أمور غامضة، وإن كانت قد أثيرت منذ سنة 1933 في قصة قصيرة لشكلوفسكي بعنوان «شكوك دوستويفسكي»، وفي كتاب للكاتب نفسه بعنوان **مع أم ضد**، قد تمَّ تجاهلها من طرف كل الباحثين، وكان علينا أن ننتظر أكثر من نصف قرن قبل أن يعيد إيغور فولغين إثارة القضية من جديد في كتابه: **آخر سنة من حياة دوستويفسكي**. ولم يثرها بعده إلا جوزيف فرانك في الجزء الخامس من **سيرة دوستويفسكي** سنة 2003، وجاك كاتو على هامش شروحاته المستفيضة الثمينة للجزء الثاني من **رسائل دوستويفسكي الكاملة** في السنة نفسها.

ترى لماذا تجنّبَ أغلب الباحثين طرح هذه القضية المحيّرة؟
والآن، إلى قضية السر المكتوم في علاقة دوستويفسكي مع أبوليناريا.

3- أبوليناريا سوسلوفا

لا نعلم بالتحديد متى وأين التقى دوستويفسكي بأبوليناريا سوسلوفا. لكن على الأرجح أنه تعرّف إليها في الجامعة حين كان يقرأ على الطَّلَبة مقاطع من كتابه: **مذكرات من البيت الميِّت**. وربما يكون ذلك اللقاء الذي تمَّ بينهما كي ينشر لها في مجلة **الزمن** قصة قصيرة بعنوان: «في الانتظار» (التي نشرتها المجلة في عدد سبتمبر 1861) بداية لعلاقتهما. لا شيء لدينا يؤكد أن تلك اللقاءات في الجامعة أو اللقاء في مقرّ المجلة كانت منطلق علاقة الحب بينهما. كل ما نعلمه أن تلك العلاقة لم تتطور إلا ابتداء من ديسمبر 1862.

ولدت أبوليناريا سوسلوفا سنة 1839 من أب قنّ في ملكية عائلة آل شيرمتييف، ولعلّ ذكاء والدها بروكوف وبراعته في إدارة أملاك سيّده كانا وراء تعجيل سيده بتحريره. وقد استمر أبوها بعد نيله لحريته في إدارة أعمال سيّده، ما مكّنه من مراكمة ثروة لا يستهان بها. انتقلت الأسرة بعد ذلك إلى سان بطرسبورغ كي يتمكّن الأطفال (ولدان وبنت) من مواصلة تعليمهم. بعد ثماني سنوات أصبح والدها صاحب مصنع، والتحقت أبوليناريا وأختها ناديجدا بالجامعة. وإذا كانت ناديجدا قد اختارت دراسة الطب وتوفّقت بل تفوّقت بحيث أصبحت أول امرأة طبيبة تتخرج من الجامعة الروسية، فإن أبوليناريا، ذات الميول الأدبية والقانونية، اكتفت بأن أصبحت

طالبة أدبية لا يهمها من الجامعة إلا حلقات النقاش وبثّ الأفكار التقدمية المتحررة.

لقد كانت أبوليناريا من ذلك النوع من الطالبات التقدميات المناصرات للتغيير، وللحرية، ولقضية المرأة. وقد بلغت من التحرر أن أصبحت فتاة عدمية، ملحدة، من دعاة الحرية الجنسية، والمساواة المطلقة بين الرجال والنساء. وصفها عميد الكلية آنذاك كما يلي:

«إن سوسلوفا مخلوقة لا يمكن الثقة بها على الإطلاق، إنها تضع على عينَيها نظارة زرقاء على الدوام، وتقصّ شعرها قصيراً كما الرجال، وتعبِّر عن آرائها بكل حرية، ولا تذهب إلى الكنيسة أبداً».

كان دوستويفسكي آنذاك رجلاً متزوجاً من امرأة مريضة بالسل تصارحه باستمرار أنها لا تحبه، وأنها لم تحبه يوماً، امرأة طريحة الفراش طالَ مرضها بحيث أن دوستويفسكي تعب منها ومن ثقل مسؤولياته في المجلة. كان قد تجاوز الأربعين، ولم يكن رجلاً وسيماً (في تلك الفترة كان لا يزال يحرص على حلق لحيته)، وإنما رجلاً قصير القامة، ذا عينين حادتَين برّاقتَين، قاسيتَين، وجبين بارز، ولكنه كان قد أصبح بعد صدور **مذكرات من البيت الميِّت** كاتباً مشهوراً، لا سيما في أوساط الطلاب ودعاة تحرير العبيد. أمّا أبوليناريا فكانت فتاة في العشرين من عمرها، جميلة، قوية البنيان، مزهوة بنفسها، كل همّها الأفكار الجديدة وحرية المرأة وما إلى ذلك ممّا كانت حلقات الطلاب تتناوله وتختلف فيه.

كان دوستويفسكي في تلك الفترة العصيبة من حياته في حاجة إلى متنفّس، وإلى من تنسيه جحيم زوجته المحتضرة سليطة اللسان.

ولعلّ ما تميزت به أبولينارِيا من حيوية الشباب ومن تحرر كانا وراء الحب الذي نشأ بينهما.

إذا كان دوستويفسكي قد أحبَّ أبولينارِيا حبّاً من القوة بحيث أنه لم ينسَها أبداً حتى بعد فراقهما، وبحيث أنها ألهمته الكثير من الشخصيات النسوية التي تعجّ بها رواياته، فإن أبولينارِيا كرهت دوستويفسكي الكهل منذ بداية علاقتهما. فقد كانت تأمل أن يحمل إليها السكينة والاستقرار، فإذا به ينزلق معها إلى جحيمها. كانت تأمل أن يحدَّ من جموحها بذكائه، فإذا بها تكتشف أنها تسيطر عليه بحواسها.

اتفق دوستويفسكي وأبولينارِيا على السفر إلى الخارج في شهر مارس 1863 رغم أن زوجته المريضة كانت على فراش الموت. لكن تبيّن أن انشغالات دوستويفسكي الأدبية والصحافية دفعته إلى أن يؤجّل السفر قليلاً، وكان يأمل أن تصبر أبولينارِيا إلى أن ينتهي من انشغالاته ليسافرا معاً في بداية شهر أغسطس، لكنها فضّلت أن تسافر إلى باريس وأن تنتظره هناك. في خضمّ ذلك مُنعت مجلة **الزمن** في 24 مايو من الصدور.

وفي 19 أغسطس، توصلت أبولينارِيا برسالة من دوستويفسكي يخبرها أنه قادم خلال أيام قليلة. لكنه توقف في فيسبادن لكي يقامر. ربح كثيراً من المال، وذهب إلى الفندق بعد أن اشترى تذكرة قطار. لكن ما أن جهّز حقيبته حتى تملكته الرغبة في العودة إلى الروليت، وهناك خسر جلَّ ما ربحه من مال، ولم يتبقَّ معه إلا خمسة آلاف فرنك.

وفي 26 أغسطس، وصلَ دوستويفسكي إلى باريس، والتقيا في

المساء. إلا أنه وجد مفاجأة مدوية في انتظاره. مفاجأة سوف تؤدي في النهاية، وبعد الكثير من المغامرات، إلى انتهاء علاقتهما.

قالت شاحبة الوجه بمجرد وصوله:

- لقد وصلت متأخّراً قليلاً.

وقد حاول دوستويفسكي أن يعيد المياه إلى مجاريها، فاقترح عليها أن يسافرا إلى إيطاليا كما تسافر أخت مع أخيها. فوافقت بعد تردُّد.

توقفا في بادن بادن، فقامر دوستويفسكي، وخسر ثلاثة آلاف فرنك. كتب إليه أخوه ميشيل من روسيا: «كيف تقدم على القمار وأنت مسافر مع المرأة التي تحب؟». يبدو أن أخ دوستويفسكي نفسه، رغم أنه أقرب المقربين إليه، كان عاجزاً عن فهم تصرفات أخيه، فكيف بنا نحن؟

ولكي يواصلا السفر، كان عليه أن يرهن ساعته، وخاتم أبولينا ريا، في جنيف. لكن ما حصلا عليه مقابل الرهن لم يسمح لهما بالسفر إلى أبعد من مدينة روما حيث بعث دوستويفسكي إلى ستراخوف (لماذا ستراخوف بالذات وهو يعتقد أنه شرير؟) يطلب منه أن يتوسط له لدى الناشر ليحصل منه على ثلاثمئة روبل.

وفي روما تعقدت علاقتهما وساءت، وانتهى بهما الأمر أن انفصلا في شهر أكتوبر. فذهبت أبولينا ريا إلى باريس، بينما عاد دوستويفسكي إلى روسيا. وفي طريق عودته توقف في مدينة هامبورغ وقامر على امتداد أسبوع بأكمله، وخسر كل ما معه من مال، فبعث إلى سوسلوفا يطلب منها أن تساعده على العودة بقليل من المال، فما كان منها إلا أن رهنت ساعتها وقلادتها وبعثت إليه بالمال.

بعد ست سنوات من نهاية علاقتهما، حصلت أبوليناريا على شهادة بيداغوجية خوّلت لها أن تنشِئ مدرسة للفتيات القرويات، لكن المدرسة سرعان ما أغلقت أبوابها بأمر من السلطات، واختفت أبوليناريا عن الأنظار من جديد إلى أن عادت إلى الظهور في الجامعة.

تزوجت أبوليناريا بالفيلسوف روزانوف الذي كان معجباً بروايات دوستويفسكي، وكتب تحليلاً متميّزاً عن فصل «المفتش الكبير» من رواية **الأخوة كارامازوف**. كانت قد تجاوزت الأربعين من عمرها، أما روزانوف فلم يكن قد تجاوز السادسة والعشرين. وعاشا معاً ست سنوات من الصراعات والمشاكل هجرته بعدها، وارتبطت برجل يهودي العقيدة.

كتب روزانوف بعد أن هجرته: «حين ذهبت أبوليناريا بكيت، ومكثت طوال شهرَين لا أدري ما أفعل، ولا فيما أنفق وقتي. لقد كانت حياتي مرتبطة بحياتها في كل ثانية إلى درجة أن فراقنا حفر هوة رهيبة في أعماقي... صحيح أن الحياة بجانبها صعبة، لكن يستحيل على من يعيش إلى جانبها أن ينساها».

دوستويفسكي أيضاً لم ينسَها أبداً. قالت زوجته آنا في مذكراتها أن زوجها كان مهووساً «بتلك المخلوقة»، وأنهما كانا يتبادلان الرسائل (وقد ضاعت تلك الرسائل إلى الأبد للأسف كما سبق). ولقد حاولت آنا يوماً أن توحي لزوجها أنها على علم بمراسلاتهما، فثارت ثائرته، وصاح بها: «أنا حر في أن أتلقى الرسائل ممن أشاء حيث أشاء، ولا أسمح لأحد أن يحشر نفسه في أمر لا يهمّه». وكتبت في مكان آخر من مذكراتها: «قرأ الرسالة عدة مرات...

وكانت يداه ترتعشان». حدث ذلك سنة 1867 أي أربع سنوات بعد فراقهما، وأثناء أول سنة من زواجه بآنا!

واضح إذاً أن أبولينا ريا لم تكن مجرد امرأة عادية.

لقد حان الوقت الآن كي نتساءل عن طبيعة ما حدث بين دوستويفسكي وأبولينا ريا، فجرحها في العمق جرحاً لم يندمل أبداً. لا شكّ أن كثيراً من الغموض ما زال يحيط بطبيعة ما حدث بينهما، وإن كان ما وردَ في مسودتَي رسالتَين كتبتهما إليه بعد فراقهما[1]، وفي ما دوّنته في مذكراتها يسمح بالقول إن دوستويفسكي أذلّ أبولينا ريا بنوع من الممارسات (الجنسية الشاذة (؟))، جعلها تعاني طوال حياتها، وتنفر من الرجال ومداعباتهم. لقد اكتفت أبولينا ريا بالتلميح إلى «تلك العلاقات» بينهما، وما تركته من جرح في نفسها، لكنها لم تفصح، لم تشأ أن تفصح. لكن لا شكّ أن ما لقيته من دوستويفسكي حال دون إقبالها على الزواج إلا بعد حوالي عشرين سنة من نهاية علاقتهما. وحين تزوجت لم تستقر مع زوجها إلّا ست سنوات، هجرَته بعدها إلى رجل آخر.

مهما يكن الأمر، فإن ما قاله أ. دولينين، أحد أكبر المختصين في أدب دوستويفسكي في روسيا في المقال الذي نُشر سنة 1925 بعنوان «دوستويفسكي وسوسلوفا»: «قد يتضح الغامض في علاقتهما إذا نجحنا يوماً في فكّ رموز الاختزال التي لجأت إليها آنا أثناء كتابة يومياتها في الخارج»، وما قاله تزيافلوفسكي وباخروتشين سنة 1928، في سيرة مختصرة لأبولينا ريا سوسلوفا: «هل سنتمكن يوماً

(1) انظر الرسالتين في الملحق.

من أن نتحدث بكل صراحة ووضوح عن تلك الحقيقة التي توصلنا إليها، والتي أدهشتنا؟»، يؤكّد ما أشرنا إليه فوق وإن كان يحملنا على التساؤل مرة أخرى: هل فضّل تزيافلوفسكي وباخروتشين أن يخفيا تلك الحقيقة حفاظاً على صورة دوستويفسكي، وخوفاً عليه من أن يستغلّها النظام البلشفي، الذي كان يعتبر دوستويفسكي كاتباً رجعياً، في تشويه سمعته؟ وهل لجأت آنا إلى إتلاف دفترَين من بين دفاتر يومياتها الأربعة كي لا يكتشف الباحثون طبيعة علاقة زوجها بأبولينارياً؟

لعلّ في هذه الحقيقة التي أدهشت الباحثين ولم تفصح عن نفسها، أو تخاف أن تفصح عن نفسها (؟)، ما يحيلنا مرة أخرى على ما ورد في رسالة ستراخوف من اتهامات.

لا شكّ أن ما حدث بين أبولينارياً ودوستويفسكي انتهى بأن وضع حدّاً لعلاقتهما. لكننا متأكدون تماماً أن دوستويفسكي لم يستطع أن ينسى أبولينارياً سوسلوفا، وأن شبحها ظلّ يطارده طوال حياته، ويفصح عن نفسه في صورة كل تلك النساء الثائرات المختلفات في تلك الروايات العظيمة التي كتبها بعد نهاية علاقتهما.

اليوميّات

الأربعاء، 19 أغسطس.

زرت سالفادور، فشرع يسألني عمّا انشغلت به، وهل فكرت فيه. قلت له إني تذكرت بالأمس قصيدة «خذني إلى الطريق»[1]. فسألني عنها. حكيت له عن مضمونها، فأعجبته. بدا أول الأمر مرهقاً، فسألته إن كانت الدروس قد أرهقته كثيراً، فأكّد لي ذلك. لكن أمراً آخر كان يشغل باله فيما يبدو، وإن أكّد لي أنها حالته الطبيعية حين يدرس كثيراً. ولكنه سرعان ما صارحني بأن خلافاً نشأ بينه وبين صهره بسبب المال. لقد كان هذا الصهر بالنسبة إلى سالفادور بمثابة الراعي الأمين، أو الأب، لذلك كان عليه أن يسافر إلى أميركا. صدمت رغم أني كنت أتوقع ذلك. ولا شكّ أن ما شعرت به من خوف ومعاناة عندئذ انعكس على ملامحي بشكل واضح، فأخذ يقبّلني. عضضت على شفتي جاهدة أن لا أنفجر باكية. فشرع يغرقني بالقُبل وهو يؤكد أنه لن يمكث هناك كثيراً. ولمّا هدأ روعي، أردف أن سفره إلى هناك قد يكون بلا رجعة، واقترح

(1) من ديوان **فارس لمدة ساعة** للشاعر الروسي الشهير نيكراسوف.

عليّ أن أسافر معه. فسارعتُ إلى التأكيد بأني أستطيع ذلك، وأن أبي سيسمح لي بذلك لا محالة، ويموّل سفري. ثم سألني من جديد متى سأشرع في تلقي دروس اللغة الإسبانية[1].

توصّلتُ لتوي برسالة من فيودور ميخايلوفيتش يخبرني فيها أنه سيصل في غضون أيام قليلة. كنت أريد أول الأمر أن أراه لأخبره بكل شيء، لكنني قررت الآن أن أبعث إليه برسالة.

19 أغسطس.

«لقد وصلت متأخّراً قليلاً... منذ مدة قصيرة، كنت أحلم بالسفر معك إلى إيطاليا، بل كنت شرعت في تعلُّم الإيطالية، ثم تغيّرَ كل شيء في أيام قليلة. سبق أن قلت لي يوماً إني لا أحب بسهولة، فها قد كان أسبوع واحد كافياً كي أحب رجلاً غيرك. أحببت بلا تردد، بلا مقاومة، ودون أن أكون متأكدة من هذا الحب، بل حتى من دون أمل في أن يبادلني مَنْ أحبه حباً بحب. لقد كنت على صواب حين غضبت منك لأنك شرعت في الإعجاب بي. لا تعتقد أني أدين نفسي، كل ما أريد قوله هو أنك لا تعرفني جيّداً، فأنا نفسي لا أعرف نفسي. وداعاً يا حبيبي.

كنت أرغب أن أراك، ولكن إلام سيؤول هذا اللقاء؟ كنت أرغب كثيراً في أن أحدّثك عن روسيا».

---

(1) سالفادور طالب في الطب في جامعة باريس، لكنه من أصل إسباني. (المترجم)

أنا الآن حزينة، حزينة جداً. كم هو كريم ونبيل! وما أشدّ ذكائه وأطهر قلبه! لقد طلب مني سالفادور هذه المرة أن أمنحه صورة من صوري، وسألني إن كنت قد تناولت الدواء الذي أعطاني، وهل تحسّنت بعد أن تناولته. ولما أجبته بأني تحسّنت فعلاً، سألني: **أصحيح**[1]؟ وسألني أيضاً متى أسافر إلى إيطاليا (قبل أن يعلن لي عن سفره)، لأني كنت قد حدثته عن هذا السفر فيما مضى، حين كنا لا نزال مجرد صديقَين. أجبته أني لا أدري متى، بل إني قد لا أسافر إلى هناك، لأنني أريد أن أسافر مع رجل أحبه.

الأحد، 23 أغسطس.

أمس ذهبت إلى منزل سالفادور. أعتقدُ أنه غاضب مني قليلاً، لأنني لم أتناول الغداء بصحبته، ولأنني كنت حزينة قليلاً. قرأت خطوط يده، وتنبّأت له بحدث سعيد (كنت أفكر في الزواج). فأخذ يسألني عن ذلك الحدث. قلت إني لا أستطيع أن أكشف عنه لأنني لا أريد أن أشغل بالي به، لكي لا أشعر بالحزن. لم يتعب من السؤال، لكنني لم أكشف عنه. ثم أخذ يتحدث عن نفسه، ويقول إنه يريد أن يمكث في باريس أربع سنوات، قد يسافر بعدها إلى أميركا. اتّضح لدي أنه لا يوليني أي اهتمام في حساباته ولو لحظة، فاتكأت عليه بعينَين مغرورقتَين بالدموع. نظر إلى وجهي، وسألني لماذا أنا

(1) بالفرنسية في النص. وكل ما سيكتب بعد هذا بخط عريض فهو وارد في النص باللغة الفرنسية.

حزينة، وفيمَ أفكر؟ أجبت أني أفكر فيه، **وحاولت** أن أحافظ على هدوئي. لكنه سألني عمّا أفكر فيه بالضبط، فأجبته أني لا أستطيع أن أخبره. قال: «أتخفين شيئاً عني أنا؟»، ثم اقترح أن نتناول الغداء معاً، لكنني رفضت. فقال: «كما تشائين».

سمعنا طرقاً على الباب. قال إن الطارق صديق له، واقترحَ من جديد أن نتناول الغداء معاً. فرفضت. وحين دخلَ صديقه إلى الغرفة، شرعت أضع قبّعتي على رأسي إيذاناً بالخروج. فرافقني سالفادور إلى الغرفة الأخرى، وسألني متى أعود.

- حين تفرغ من دروسك، ما رأيك في يوم الثلاثاء؟

- عودي يوم الثلاثاء إذا لم تستطيعي المجيء قبل ذلك.

سألني هل أواظب على تناول الدواء، ونبّهني إلى أني لا أغسل أسناني بالفرشاة، وقال إن الإهمال يسيء إلى أسناني الجميلة.

أحسست هذه المرة أنه لا يحبني، وبرغبة شديدة في أن أجعله يحبني. إنه أمر ممكن، لكن ينبغي أن أتصرف بدم بارد. أعرف نقطة ضعفه: إنه مزهو بنفسه.

كان قد سألني بحضرة **صديقه**، خلال آخر لقاء بيننا، عن عنوان روايتي التي لم يسألني عنها من قبل. كما سألني عما أنا منشغلة به هذه الأيام، ورجاني أن أقول كلاماً بالإيطالية. اليوم، وحين أفكّر جيّداً في ما حدث، أكاد أشعر بالسعادة بأن سالفادور لم يحبني إلا قليلاً، لأن ذلك يمكنني من أن أبقى حرة طليقة. أشعر برغبة في أن أسافر إلى أوروبا، أن أذهب إلى لندن، وأن أستعلم كي ألتحق بطائفة «العدّائين». إن الحياة التي تخيلت أن أحياها ما كانت

لترضيني. فقد كنت في حاجة إلى حياة رحيبة غنية بالأحداث.

ما الذي أريده؟... آه، ما أكثر رغباتي!
إنها تتصارع بداخلي باحثة عن متنفّس!
لا شكّ أن ما بداخلي من قلق يزيد من تعبي
وسيحرق دماغي يوماً ويمزّق صدري المثقل[1].

الثلاثاء، 24 أغسطس.

ذهبت اليوم إلى سالفادور، فلم أجده. انتظرته ساعة كاملة، لكنه لم يعد... فانتابتني، وأنا في غرفته، أحاسيس كثيرة. لكني لن أبوح بها. مكثت جالسة، واضعة رأسي فوق ذراعي، مركّزة نظراتي على عقارب ساعتي اليدوية. كان قلبي يخفق بشدة، والدموع تنفر من عينَي بلا توقف، وأنتفضُ من مكاني كلّما سمعت صوتاً. فكرت أن أكتب إليه رسالة جادة، لكني أحجمت، فلم أكتب إلّا ما يلي:

«أتيت اليوم إلى فندق «ج»، ولم أجدك. فماذا يعني ذلك؟ ولمَ لمْ تخبرني بأنك ستغيب عن الفندق؟ أنت تعلم أن غيابك عذاب بالنسبة إليّ. لقد فكرت فيك كثيراً، وفي أن أكتب إليك رسالة، لكن انشغالاتي الكثيرة منعتني من ذلك. سأستعين بأستاذ للغة الإسبانية عما قريب، وأنا الآن أفكر في طريقة للعثور عليه.

اكتب إليّ.

أ. س.

---

(1) من قصيدة للشاعر أوغاريف.

أنا حزينة لأنني لم أتمكن من لقائك، وأتمنى أن لا تسعد بذلك. غيابك يحزنني، لكني متيقّنة من حبك لي رغم ذلك».

أذكر أني قلت له في آخر مرة التقينا خلالها: «لا تكذب عليّ». لا أدري لماذا قلت ذلك. ولكنه أجابني بعزة نفس: «ولماذا أكذب؟». إنه لشيء عظيم أن يكون المرء عزيز النفس. لكني أعتقد، رغم ذلك، أن عائلته تعيله.

الأربعاء، 27 أغسطس.

توصّلتُ لتوي عبر البريد برسالة من فيودور ميخايلوفيتش[1] بعثَ بها من باريس. لَكَمْ يبدو سعيداً بلقائي القريب! بعثت إليه برسالة قصيرة كنت قد كتبتها مسبقاً. إنني أشفق عليه حقاً.

ما أكثر الأفكار والعواطف المختلفة التي ستزعجه حين يتخلّص من وقع صدمة المصيبة التي وقعَت! كل ما أخشاه أن يتعب من الانتظار فيقرِّر المجيء اليوم قبل أن يتوصل برسالتي (التي لن يتوصّل بها عاجلاً). لن أتحمّل هذا اللقاء ببرودة دم. لحسن الحظ أني **أعلمته** أن يكتب إليّ قبل مجيئه، وإلا ما كان لي أن أتصور ردّ فعله حين سيعلم بما حدث... أما سالفادور، فلم يكتب إليّ حتى الآن... أعتقدُ أن هذا الرجل سيكون وراء الكثير من مصائبي.

---

(1) تكتفي أبوليناريا في مذكراتها بذكر الحرف الأول من اسم دوستويفسكي الشخصي (فيودور) واسم أبيه (ميخايلوفيتش) في الغالب الأعم، وتفعل الشيء نفسه أيضاً بالنسبة إلى كثير من الأسماء الواردة في النص.

مساءً

حدث ما توقعته. ما إن انتهيت من كتابة هذه الأسطر، حتى أتى فيودور ميخايلوفيتش، رأيته من وراء النافذة، لكنني انتظرت إلى أن يخبروني بوصوله. ومكثتُ طويلاً لا أجرؤ على أن أخرج إليه. «نهاراً سعيداً»، قلتُ بصوت مرتعِش. فسألني ماذا بي؟ ما عمّقَ انفعالي وقلقه. قلت: «اعتقدت أنك لن تأتي، لأنني بعثت إليك رسالة».

- أية رسالة؟

- رسالة طلبت منك فيها أن لا تأتي.

- لماذا؟

- لأنك وصلت متأخّراً.

طأطأ رأسه وقال:

- يجب أن أعرف كل ما حدث، لنذهب إلى مكان ما، يجب أن تحكي لي كل شيء وإلا هلكت.

اقترحت أن نذهب إلى غرفته. التزمنا الصمت طوال الطريق. **لم أكن أنظر إليه. أما هو فكان ينظر إليّ من حين لآخر**، ويصيح بالحوذي: «**أسرع، أسرع**» بصوت من اليأس ونفاد الصبر، بحيث أنه كان يلتفت أحياناً وينظر إليه مدهوشاً. كنت أحاول أن لا أنظر إلى فيودور ميخايلوفيتش، هو أيضاً كان يتحاشى النظر إليّ، لكنه احتفظ بيدي بين يدَيه طوال الطريق، وكان يضغطها أحياناً بحركات متشنِّجة. قلت له: «اطمئن، فأنا إلى جانبك».

ما أن دخلنا إلى الغرفة حتى جثا أمام قدمَي، وضمَّ ركبتَي بذراعَيه، وأجهش باكياً وهو يقول: «لقد أضعتك، أنا متأكد أني أضعتك».

ولمّا هدأ روعه، أخذ يسألني أي نوع من الرجال هو: «قد يكون وسيماً جداً، ويجيد تنميق الكلام، **لكنك لن تجدي قلباً مثل قلبي أبداً**».

مكثتُ وقتاً طويلاً ممتنعة عن الإجابة.

- هل منحتِه نفسك؟

قلت:

- لا يصحّ أن تسألني هذا السؤال.

- لم أعد أميّز بين ما يصحّ وما لا يصحّ يا بوليا[1]. هل هو روسي أم فرنسي، هل هو الطبيب المكلّف بعلاجك؟ ذاك الذي [غير مقروء]

- لا. لا.

مكتبة
t.me/t_pdf

قلت له إني أحبه كثيراً.

- وهل أنت سعيدة؟

- لا.

- ماذا؟ أتحبينه ولست سعيدة؟ معقول؟

- إنه لا يحبني.

صاح وهو يمسك رأسه بين يديه:

- لا يحبك! أتحبينه حب العبيد؟ اعترفي، أنت مستعدّة للذهاب معه إلى أقصى العالم إذا شاء، أليس كذلك؟

قلت وأنا أبكي بدموع حرّى:

- لا، أنا... سأرحل إلى البادية.

---

(1) بوليا وبولينا وبولينكا هي ألقاب تحبيب جارية لاسم أبولينار يا.

- آه، لماذا أنت تعيسة يا بوليا! كنت أتوقع أن تحبي رجلاً غيري، لأنك أحببتني خطأ، ولأن قلبك كريم. لقد انتظرتِ حتى سنّ الثالثة والعشرين كي تقعي في الحب. إنك المرأة الوحيدة التي لم تطلب مني أي وعد. لكن ما أهمية ذلك؟ إن الرجل والمرأة مختلفان. الرجل يأخذ، والمرأة تمنح.

ولمّا أخبرته أي نوع من الرجال هو، اعترفَ أن شعوره في تلك اللحظة كان سيّئاً، وأنه اطمأن حين علم أنه ليس رجلاً جاداً، ليس مثل ليرمنتوف[1]. تحدثنا كثيراً في مواضيع مختلفة. قال إنه سعيد أنه تعرّف في هذا العالم إلى امرأة مثلي. ورجاني أن أحافظ على صداقتنا، وأن أكتب إليه، لا سيما حين أكون سعيدة أو تعيسة. ثم اقترح أن نسافر إلى إيطاليا معاً كما تسافر أخت مع أخيها. وحين قلت إنه لا شكّ سوف ينشغل عما حدث بكتابة روايته[2]، قال: «من تظنيني؟ أتعتقدين أن كل ما حدث لن يترك في نفسي أي أثر؟». وعدته أن أعود إلى زيارته غداً. لقد شعرت بالارتياح بعد أن صارحته بما حدث. إنه يفهمني.

لم أتوصّل بأية رسالة من سالفادور، فبادرت إلى كتابة رسالة هذا نصها:

«لم أجدك في الفندق يوم الثلاثاء، ولم تخبرني أنك ستغيب. ربما لم تتوصل برسالتي، لكن كان عليك أن تكتب إليّ مهما يكن الأمر. ألا تعلم كم أحبك؟ إنني أحبك حدّ الجنون. اعتقدت أنك

---

(1) كاتب روسي من معاصري دوستويفسكي الذي كان معجباً بروايته **بطل من هذا الزمان**.

(2) حينذاك كان دوستويفسكي قد بدأ يفكر في كتابة رواية **المقامر**.

أصبت بأذى ما، فتشوّشَ عقلي. إنني لا أعرف كيف أعبِّر عن مدى حبي لك، ولو كنت تعلم كم أحبك لما عرّضتني لكل تلك المعاناة التي تحمّلتها يومَين كاملَين في انتظار أخبارك».

وأنا الآن بصدد كتابة رسالة أخرى أسلّمه إياهاً في وقت لاحق.

«أودّ أن أعبِّر لك عن عميق حبي، وإن كنت عاجزة عن التعبير عن حبي بالكلمات. يجب أن تعلم، مع ذلك، أني لم أكن سعيدة قط، وأن كل من أحبوني آلموني، ولا أستثني منهم أبي وأمي. إن جميع أصدقائي طيّبون، لكنهم ضعفاء محدودو التفكير، كثيرو الكلام قليلو المبادرة. لا يوجد من بينهم من لا يخاف من الحقيقة، ولا يخضع للعادات الاجتماعية. هم أيضاً يدينونني. وأنا لا أستطيع أن أحترم أناساً من هذا النوع، لأنني أؤمن بأنه لمن الإجرام أن أقول شيئاً وأقوم بما يخالفه، ولا أخشى إلّا ضميري. وإذا أجرمت في حق ضميري، فلن أبوح بذلك إلّا لنفسي، لا لأني متساهلة مع نفسي بل لأني أكره الضعفاء والجبناء. وأتجنّب من يكذبون على أنفسهم حتى عن غير وعي منهم، ولا أريد أن أرتبطَ بهم. إنني أفكر في أن أستقر في البادية وسط الفلاحين لكي أخدمهم بشكل من الأشكال، وذلك لأني أعتقد أن من يعيش دون أن ينفع الآخرين لا يستحق أن يعيش».

الاثنين، الأول من سبتمبر.

حالَت الظروف دون أن أبعث برسالتَي الأخيرتَين إلى سالفادور. عدت ذات مساء في وقت متأخّر قليلاً من الفندق الذي

ينزل فيه فيودور ميخايلوفيتش، فنمتُ دون أن أشعل الشمعة. نمتُ نوماً مضطرباً لأنني كنت أفكر في سالفادور. ثم استيقظت بعد الفجر بقليل، وأخذت أذرع الغرفة جيئة وذهاباً. وفجأة، رأيتُ رسالة فوق الخوان. لم يكن الخطّ بالغريب عليّ. إنه خطّ صديقه الذي كان يراسلني. أخبرني أن سالفادور مصاب بالتيفوئيد، وأنه مريض منذ **آخر يوم التقينا فيه**، وأني لا أستطيع ملاقاته، لأنه يقطن الآن في منزل أصدقاء نصحه أهله أن يلجأ إليهم، وأن السيد الذي يسهر على رعايته، سيرتابُ إذا ما قمت بزيارته. أجبت على رسالته على الفور، فقلتُ إنه لمن البربرية أن أُمنع من لقاء سالفادور، وطلبت منه أن يكاتبني باستمرار بخصوص حالة صديقه الصحّية. وفي اليوم نفسه، بعثت برسالة إلى سالفادور الذي كنت أعتقد أنه على فراش الموت. كتبت أقول له أنه لا شكّ سيشفى، لأنه ليس من العدل أن لا يشفى. كنت في غاية اليأس، لا سيما أن هذا المرض على الخصوص خطير على صحّة الشباب. طمأنني فيودور ميخايلوفيتش قائلاً إن ما يتميز به جوّ باريس **وأطباؤها** سيدرأ عنه الخطر. رحلت إلى منزل آخر، وانتظرت طوال يوم السبت رسالة من صديقه، وكنت أنتظر أن يزورني صديقه بنفسه يوم الأحد (لأنني كنت قد دعوته إلى منزلي كي أسأله عن سالفادور). خرجتُ للنزهة في شارع السوربون يوم السبت على الساعة السادسة، فإذا بي أصادف سالفادور في الطريق. رأيته من بعيد، لكنني لم أصدق على الفور أنه هو. لم أصدق إلا حين أقبلَ عليّ مبتسماً، وإن كان شاحب الوجه. أمسك يدي. لم أستطع البقاء واقفة على قدمَي، ومكثت لحظات عاجزة عن الكلام. لم أكن حينئذ قد شككت في شيء. لم أكن أشعر إلا بالألم لأنه لم يكتب

إليّ. كان أول ما نطق به أنه كان مريضاً جداً، وأنه خرج من المنزل لأول مرة بعد مرضه.

قلت : «نعم، أنت في غاية الشحوب». نظرتُ إليه في تلك اللحظة، فرأيت على وجنتيه بقعاً حمراء.

قال: «غضبتِ لأنك لم تجديني في المنزل يوم الثلاثاء، ولكنك نسيت أنك ضربت لي موعداً يوم الخميس لا الثلاثاء».

حين سمعت قوله، بدأت الأمور تتضح، غير أن معاناتي كانت من القوة بحيث لم أجد في نفسي القوة على أن أعبِّر عن نقمتي. فانهمرت الدموع على خدي.

سألني: إلى أين كنت ذاهبة؟

- للتجول، وأنت؟

- ذاهب لزيارة صديق في شارع سوفلو.

- لنسر قليلاً معاً. اعتقدت أنك مريض. كتب إليّ رفيقك هذه الرسالة (وأخرجتها من محفظتي). اقرأ ما كتب. سبق وأن كتبت إليه مرتَين أطلب منه أن يزورني.

- أنا مغتاظ ممّا كتبه، اعتقدت أني مصاب بالتيفوئيد، لكني كنت مصاباً بمرض آخر لحسن الحظّ.

أخذ ينظر إلى الرسالة. بدا كأنه لا ينظر إليها، أو كأنه على علم بمحتواها.

أعادها إليّ، فقلت: «اقرأها، اقرأها في منزلك فيما بعد».

ولكنه فتحها من جديد. ربما لكي يتحاشى الحديث معي. قبل أن نصلَ إلى شارع سوفلو، قال إنه ينبغي أن ينعطف يساراً (كان

محرجاً من السير إلى جانبي). قلت: «وداعاً إذاً، سأمضي في الاتجاه الآخر».

قال: «دعيني أرافقك قليلاً» (هل هو الندم أم الشفقة؟).

وصلنا إلى شارع سوفلو صامتَين (كان لا يزال يقرأ رسالة صديقه). «وصلت»، قال وهو يشير إلى عمارة من عمارات الشارع أمامنا تماماً.

حين ذهب، أدركت ما حصل على الفور. ما أن عدت إلى غرفتي حتى انتابتني نوبة هستيريا، فأخذتُ أصيح أني سأقتله. لم يسمعني أحد. ثم اضطجعت لحظات لا أفكر في شيء. أحسست بالحمّى تصعدُ إلى رأسي، فاعتقدت أني سأمرض. أسعدني ذلك. ثم أخذت أفكر فيما عليّ أن أفعله، واتخذت قراراً... أردت أن أكتب إلى أختي رسالة. جمعت كل حاجياتي، وأحرقتُ بعض دفاتري ورسائلي (تلك التي من شأنها أن تشوّه سمعتي)، فشعرت بالارتياح. لم أرثَ إلا لحال أمي وآل هوجرمان الذين سيتعرضون للمشاكل. فكرت كثيراً في أن أدّعي أني لم أقطن في منزلهم كي لا أورِّطهم، أو أتسبّب لهم في أية مشاكل. لم أنم طوال الليل، وعلى الساعة السابعة من صباح الغد ذهبت إلى دوستويفسكي، فوجدته لا يزال نائماً. ولكنه استيقظ حين علم بمجيئي، وفتحَ لي الباب، ثم تدثّر وعادَ إلى الاضطجاع على السرير، وشرع ينظر إليّ بدهشة وخوف. كنت هادئة **قليلاً**. طلبت منه أن يزورني في منزلي حالاً، فقد كنت أشعر برغبة في أن أحكي له ما وقع، وأن أستعين برأيه. لم أشأ أن أطيل البقاء في غرفته، لأني كنت أنتظر زيارة سالفادور. حين أتى فيودور ميخايلوفيتش إلى منزلي، قمتُ عن المائدة التي كنت

أتناول عليها فطوري لكي أستقبله وأنا لا أزال أمضغ قطعة من الخبز. وقلت ضاحكة:

- هل رأيت كم أنا هادئة؟

- نعم، وأنا مسرور بذلك، لكن معك أنت كيف يمكن التأكُّد أنك هادئة حقاً؟

بعد أن سألته بضع أسئلة تافهة، شرعتُ أحكي له عن قصة حبي، وعن لقائنا أنا وسالفادور أمس. لم أخفِ عنه شيئاً.

قال فيودور ميخايلوفيتش أني لا يجب أن أولي أهمية لما وقع، وأني لوّثت شرفي دون شكّ، غير أن ذلك لم يحدث إلّا عن طريق الصدفة، وأن سالفادور في حاجة إلى عشيقة ككل الشباب، وأنه صادفني في طريقه، فاستغلَّ الفرصة. وكيف لا يستغلها وأنت امرأة جميلة ترضي كل الأذواق؟

أعلم جيّداً أن فيودور ميخايلوفيتش على صواب، لكن ما أشد وطأة كلامه عليّ في تلك اللحظة!

- كل ما أخشاه أن تتهوري وتقدمي على حماقة ما (كنت قد بحت له بما فكرت فيه حين لم أجد سالفادور في منزله).

قلت:

- لا أتمنى أن أقتله، ولكن أتمنى أن أعذّبه عذاباً طويلاً.

قال:

- دعي مثل هذه الأفكار، فهو لا يستحق ذلك، بل لن يفهم شيئاً من ذلك. إنه مجرد وسخ يجب أن تمحيه بشيء من بودرة الوجه. إنه لمن الغباء أن تقدمي على تدمير حياتك بسببه.

لا شكّ أنه على صواب. لكني ما زلت أحبه كثيراً رغم ذلك، ومستعدّة أن أضحي بنصف حياتي كي يشعر بالندم على ما أقدم عليه، ويعتذر لي. لا شكّ أن شيئاً من ذلك لن يحدث أبداً، إلا أن القلق ما زال ينتابني من حين لآخر. ولقد شعرت في هذه اللحظة برغبة في ما فكرت فيه قبل قليل، في أن أنتقمَ منه، لكن ما السبيل إلى ذلك؟ كيف أشفي غليلي؟ لا شكّ أن لديه عشيقة غيري، عشيقة لديها الكثير من المعجبين، عشيقة تشاجرَ معها، فارتبطَ بي. والآن لا شكّ أنهما تصالحا، فعاد إليها.

لم يزرني أمس. لا شكّ أنه لن يزورني اليوم أو غداً. لكن لماذا وقد وعدني أن يأتي دون أن أطلب منه ذلك؟ أعتقد أن عزة نفسه لن تسمح له أن يبدو كذاباً في نظري. لكن، ترى ماذا كان هدفه من قصة المرض التي اختلقها؟ قررتُ أن أبعث إليه بالمال كي [غير مقروء]. سيقول فيودور ميخايلوفيتش: لا داعي لذلك. إنه يزدريه كثيراً، ويعتقد أن عليّ أن أعاني وأتألم كي أكفّر عن زلتي. لكني أعتقد أن هذه الزلة لم تكن عبثية.

2 سبتمبر.

قال فيودور ميخايلوفيتش أن لا داعي ولا جدوى في أن أبعث إليه بمال. إنه يعتقد أني بذلك إنما أبحث **لا شعورياً** عن ذريعة للتقرُّب من سالفادور، وأن مثلَ هذا التصرف سيسمح له بأن يبرِّر مسلكه ويخوّنني.

سألته:

- هل ينبغي أن أخشى ذلك؟ أن لا أثق في نفسي؟ إذا خشيت أن يخونني، فهذا يعني أني لا أعتز بنفسي.

كان واضحاً أن فيودور ميخايلوفيتش لم يفهم ما قلت، لأنه لم يطّلع على الرسالة التالية:

«سيدي العزيز، لقد سمحت لنفسي يوماً أن تقدّمَ لي خدمة من تلك الخدمات التي من المعتاد أن نتلقى أجراً مقابلها. أعتقد أنه كي نحصل على خدمات ما، ينبغي أن ننظر إلى من يقدّمها لنا نظرتنا إلى الأصدقاء. لذلك أبعث إليك بهذا المال لكي أمحو الخطأ الذي ارتكبته في حقك، ولا يحق لك أن ترفضه.

حاشية: أضيف أنه لا ينبغي أن تتجنّبني أو أن تخاف مني، فأنا لا أرغب في ملاحقتك والتشبُّث بك. يمكنك أن تصادفني في الطريق (وقد يحدث ذلك) وتتظاهر بأنه لم يكن بيننا شيء في يوم من الأيام، بل إنني أطلب منك ذلك. أقول كلامي هذا مفترضة أنك ستقبل المال الذي أبعث إليك، أما إذا لم تقبله فأنصحك أن تختفي عن أنظاري في أبعد مكان تستطيع أن تختفي فيه (لأنني إذا صادفتك في طريقي، سأغضب غضباً عواقبه خطيرة).

يحسن بك أن تختفي عن أنظاري فعلاً لأنني امرأة عديمة الأخلاق (امرأة متوحِّشة تماماً) لا أفهم شيئاً في مزحاتك المفتعلة الغريبة. إنني جادة فيما أقول».

حكيت لفيودور ميخايلوفيتش عن تلك الرسالة، فقال إني أستطيع أن أبعث بالمال بطبيعة الحال، لأنني لن أبقى مكتوفة الأيدي في هذه الحالة. بعثت بتلك الرسالة منذ ثلاثة أيام ولم أتلقَّ جواباً بعد (لا شكّ أنه لم يكن ينبغي أن أبعث بها). أعترفُ أني لم أتوقع

ذلك. إن هذا الرجل ليس مهذباً بما يكفي كي يلزم الصمت صوناً لعزة نفسه، وليس متهتّكاً بما يكفي كي يلزم الصمت عن وقاحة. إنه خائف. قد يلجأ إلى اختلاق ذريعة ما كي يردّ على رسالتي، لكنني أشك في ذلك. أعتقد أنه بالنظر إلى ما أعرفه عن طبعه لا يمكن أن يكون خائفاً، وأنه سيعيد إليّ المال ويحتفظ بالرسالة. لا شك أنها جرحت كبرياءه، وربما كان وقعها أكبر، لأنه يتميّز بنوع من الشرف **ليس نابعاً من قناعته**، ولا من دماغه، وإنما هو نوع من الشرف ورثه عن تعاليم الديانة الكاثوليكية.

بادن بادن، 5 سبتمبر.

كنت حزينة قبل أن أغادر باريس، لا لأنني ألفتها، فأنا لم أجد أية صعوبة في هجرة بطرسبورغ، لكنني كنت قد أقدمت على ذلك حينئذ وكلّي أمل في غد مشرق، أما هنا في باريس فقد فقدت كثيراً من الأشياء. أصبحتُ أعتقد أني لن أحب أحداً بعد ما حدث. كانت نار الرغبة في الانتقام لا تزال خامدة تحت الرماد، لذلك قررت، إذا لم أفلح في نسيانها في إيطاليا، أن أعود إلى باريس كي أنفّذ مشروع الانتقام... أثناء السفر تحدثت مع فيودور ميخايلوفيتش عن ليرمنتوف. تذكّرت الطبع الذي ميّز بطل روايته، فبدا لي كل ما عشته في غاية التفاهة، وغير جدير بالاهتمام... قال ليرمونتوف في روايته:

لم يشأ أن يُبارك شيئاً في هذا العالم.

وإنه لعلى صواب، إذ ما جدوى الحب؟

يبدو أني مريضة. أرى أنه ليس عدلاً أن أقع فريسة المرض، وذلك لأني أؤمن أن الطبيعة تشتملُ على بعض قوانين العدالة.

بادن بادن، 6 سبتمبر.

إن السفر رفقة فيودور ميخايلوفيتش لا يخلو من متعة. حين توجهنا إلى القنصلية البابوية للحصول على تأشيرة السفر تشاجر فيودور ميخايلوفيتش مع الموظفين. طوال طريق سفرنا لم يكن يتحدث إلا شِعراً، وحين وصلنا إلى هنا، وحصلنا على غرفتين بسريرَين، كتب على دفتر الفندق «**ضابط**» ووقّع، فضحكنا كثيراً. لعب الروليت بلا انقطاع. إنه كثير الاستهتار، على العموم. أثناء السفر، كان قد قال لي إنه لا يزال لديه أمل، وإن كان قد أكّدَ لي العكس قبل ذلك. لم أجبه بشيء، ولكنني كنت متأكدة بأن لا أمل على الإطلاق. راقه أني غادرت باريس بكل عزم، لأنه لم يتوقع مني ذلك. لكن لا ينبغي أن يقف عند هذا الأمر كثيراً. بالأمس، عاد إليه الأمل في أن نعود إلى سابق علاقتنا. حوالي العاشرة مساء شربنا الشاي. كنت تعبة. وحين فرغنا من شرب الشاي تمددتُ على السرير، ورجوت فيودور ميخايلوفيتش أن يجلس إلى جانبي. أحسستُ بالراحة. أمسكت بيده، وأبقيتها في يدي طويلاً. قال إنه يشعر بالراحة في الجلوس هكذا إلى جانبي.

قلت إني كنت ظالمة فظة في معاملتي له في باريس، ما أوحى إليه أني لا أفكر إلا في نفسي. والحال أني كنت أفكر فيه هو أيضاً، ولكنني لم أصارحه بذلك حينذاك كي لا أغيظه. وفجأة، نهضَ من

مكانه بجانبي، وأراد أن يغادر الغرفة، لكن قدمه تعثرت في الحذاء بجانب السرير، فعاد إلى الجلوس بسرعة.

سألته:

- إلى أين كنت تريد الذهاب؟

- كنت أريد أن أغلق النافذة.

- اغلقها إذاً.

قال وقد أصبح وجهه غريباً:

- لا، لا داعي. إنك لا تدرين ما حدث لي اللحظة.

نظرت إلى وجهه، فرأيته مضطرباً. سألته:

- وما الذي حدث؟

- أردت أن أقبّل قدمك.

قلت محرجة شبه مرعبة، وأنا أطوي ساقي:

- آه، ماذا تقول؟

- رغبتُ في تقبيلها، فقررت أن أقبّلها.

ثم سألني إن كنت أرغب في النوم. أجبته نافية، وقلت إني أرغب في البقاء معه. حين فكرت في خلع ثيابي كي أخلد للنوم، سألته هل ستأتي الخادمة كي تحمل طبق الشاي. فأكد أنها لن تأتي. ثم أخذ ينظر إليّ بطريقة أحسست معها بالحرج. وقال مبتسماً:

- أشعر بالحرج أنا أيضاً.

أخفيت وجهي في الوسادة، ثم سألته مرة أخرى هل ستأتي الخادمة، فأكّد أنها لن تأتي. قلت:

- عد إلى غرفتك إذاً، فأنا أشعر بالنعاس.

قال:

- حالاً.

ولكنه مكثَ لحظة. ثم قبّلني بهياج. وأخيراً، أشعل لنفسه شمعة. وكان عَقِب شمعتي في طريقه إلى الانطفاء نهائياً.

قال:

- سيعمُّ الظلام الغرفة.

- لا، لن يعمّها، فما زال لدي شمعة أخرى.

- ولكنها شمعتي.

- لديّ غيرها.

قال مبتسماً:

- أرى أن لديك جواباً عن كل سؤال.

وخرج. ولكنه لم يغلق باب غرفته، وسرعان ما عاد إلى غرفتي متذرّعاً أنه يريد أن يغلق النافذة. اقترب مني، ونصحني بأن أتعرّى.

قلت وأنا أتظاهر أني أنتظر خروجه:

- سأفعل.

خرجَ من جديد، ثم ما لبث أن عاد بذريعة أخرى. ولكنه سرعان ما غادر الغرفة وأغلق الباب. حين تذكّرَ في اليوم التالي ما حدث بالأمس، قال إنه كان سكران. وأضاف أن تصرُّفه لا شكّ لم يرقني وأقلقني. دعوته أن لا يهتم بالأمر، وأن لا يعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى. كانت نبرة صوتي توحي في الوقت نفسه بالأمل في عودة العلاقة بيننا إلى سالف عهدها وبموت الأمل في أن تعود كما كانت. قال إني كنت قد ابتسمت حينئذ ابتسامة مؤذية، وأني لا شكّ اعتبرته في تلك اللحظات غبياً، وأنه واعٍ بالزلة التي أقدمَ عليها، وأنها لم تكن زلة متعمّدة.

مساءً

قبل قليل تذكرت أختي. لا شكّ أنها كانت ستلومني على السفر إلى إيطاليا، لكني لا ألوم نفسي، فأنا أعشقُ السفر: كي أتعلم، وكي أشاهد عوالم جديدة. ألا يحق لي ذلك؟ وعلى العموم، أصبحت العقيدة التي ارتضيتها لنفسي فيما مضى، والتي كنت فخورة بالتمسُّك بها، تبدو عقيدة ضيّقة محدودة. لقد افتتنت بها افتتاناً جعل مني امرأة خسيسة بليدة. قد أكون بصدد الانتقال نحو قناعة جديدة تماماً ومناقضة لقناعتي القديمة؟... لا، لا أستطيع أن أجزم بذلك، فلو كان الأمر كذلك لاعترفت بحدوث ذلك التحول فعلاً، فقد سبق أن فكرت ذلك من قبل. أضف إلى ذلك أني الآن هادئة، وأشعر أن أفكاري تشهدُ منعطفاً جديداً.

خسر فيودور ميخايلوفيتش في القمار، فهو الآن قلق قليلاً ومنشغل البال لأنه لم يتبقَّ لدينا ما يكفي من المال لمواصلة السفر. إنني أشفق عليه، ولعلّ إشفاقي راجع إلى أني لا أستطيع أن أكافئه على اهتمامه بي بأي شكل من الأشكال. لا أستطيع شيئاً، فما العمل؟ هل لدي واجبات نحوه؟ لا، إنها مجرّد تفاهات.

تورينو، 14 سبتمبر 1863.

أمس، تناولت وجبة الغداء مع فيودور ميخايلوفيتش على **مائدة الضيوف**. كان جميع الجالسين حولنا من الشباب الفرنسي؛ وكان أحدهم يرمقني بكثير من الوقاحة، بل إن فيودور ميخايلوفيتش لاحظَ أنه أشار إلى صديقه إشارة غامضة بخصوصي. غضب فيودور

ميخايلوفيتش جرّاء ذلك واضطرب، لأنه سيصعب عليه أن يحميني إذا دعت الضرورة. قررنا أن نتناول وجبة الغداء في فندق آخر. حين أشار ذلك الفرنسي بتلك الإشارة إلى صديقه، رشقه فيودور ميخايلوفيتش بنظرة من العنف بحيث أشاحَ بنظره، وأخذ يمازح صديقه مزحات رديئة.

تورينو، 17 سبتمبر 1863.

شعرتُ باندفاعة جديدة من الرقّة نحو فيودور ميخايلوفيتش. كنت قد لمته يوماً على أمر ما، ثم شعرت أني على خطأ. فرغبت أن أكفّرَ عن خطأي بمعاملته برقّة. سعد بذلك أيما سعادة، فسعدت به، وقررت أن أضاعف من رقّتي. حين نظرت إليه برقّة وأنا جالسة إلى جانبه، قال: «هذه النظرة أعرفها جيّداً، لكني لم أرَها منذ وقت طويل». فوضعت رأسي على صدره، وأخذت أبكي.

أثناء العشاء، قال وهو ينظر إلى فتاة صغيرة تتلقّى دروساً: «انظري، تخيّلي فتاة مثلها مع رجل عجوز، وتخيّلي دكتاتوراً ما يُقبِل عليهما ويصيح آمراً وهو يشير إليهما: «اسحقوا المدينة كلها». هكذا جرت الأمور في هذا العالم دائماً».

جنوى، الثلاثاء 22 سبتمبر.

ما أبشع هذه المدينة! دُورها عالية كأبراج الأجراس، وشوارعها من الضيق بحيث بالكاد يستطيع المرء إن يضع قدميه فيها. المنازل

مطلية، هندستها بشعة، والحشائش تنمو على سطوحها؛ في أزقتها يمشي الرجال بصدور عارية، وتضع النساء خماراً أبيض على رؤوسهنّ. هذا الخمار يعوِّض القبّعة والطرحة.

أمس، في تورينو، قرأتُ كتاب فلسفة، وفهمت منه بعض الأمور على غير المتوقّع. يقول الكاتب إن كانط توقف عند فرضيته: «إننا لا نستطيع أن نفهم الأشياء في ذاتها»، أما هيغل فوصل إلى فكرة أن الأشياء لا توجد إلا كمعانٍ مجرّدة[1]. لم يعنِ بذلك المعاني المجردة التي يعبِّر بواسطتها كل شخص عن شيء ما، وإنما المعنى الكامن في تلك المعاني المجردة ذاتها. ثم ميّزَ الكاتب بعد ذلك بين المعنى المجرّد، وإدراك المعنى المجرّد[2]، فإدراك المعنى المجرّد عام بالنسبة إليه، أما المعنى المجرّد فخاصّ. ثم قارنَ بين إدراك المعنى المجرد والواقع. فقال إنهما حتى إن كانا مترابطَين، فهما متعارضان رغم ذلك: فالمعنى المجرّد يحيلنا على شيء موجود أو ممكن الوجود، بينما الواقع شيء **يحيل أو يمكن أن يحيل** على المعنى المجرد.

---

(1) أي: ماهية مجردة عن المادة وعن الأعراض كالمقدار واللون، والصوت والرائحة. (المترجم)

(2) وهي عملية عقلية يقوم بها الفهم لإدراك المعاني المجردة أو تركيبها. (المترجم)

ليفورنو، على متن الباخرة، الخميس 24 سبتمبر.

أمس، كانت الأمواج صاخبة بحيث اعتقدت أننا سنهلك. على متن هذه الباخرة التقيت ببحّار يتكلم اللغة الروسية، وبكاتب نرويجي مسنّ ترجمَ وقرأ بعض الكتب من الأدب الروسي. علينا أن نمكث في ليفورنو طوال اليوم، لأن باخرتنا ستحمّل ببضائع جديدة. أبديت عن رغبتي في الاطّلاع عمّا في الباخرة، فانبرى البحّار الذي يتكلم الروسية لهذه المهمة. كان يخاطبني باستعمال ضمير المخاطبة المفردة «أنتِ». أعجبني ذلك كثيراً (لأنه ذكّرني بالفلاحين الروس الذين لا يستعملون ضمير الجمع المخاطب «أنتم» في حواراتهم). لا غرابة أن يستعمل ضمير المخطابة المفرد إذاً، فقد تعلّم الروسية في أوساط الفلاحين.

صعدَ إلى الباخرة عند إرسائها إيطاليان: أحدهما شاب في مقتبل العمر، والثاني في حوالي الثانية والثلاثين. كلاهما رزينان، بل يكادان يبدوان صارمَين. أثناء السفر، كان أكبرهما منصرفاً إلى قراءة **نابليون الصغير**[1]. أعطاني أصغرهما عنباً. أعجباني كلاهما. أما ذلك الإيطالي الذي يسافر معنا منذ انطلاق الرحلة، ذلك الذي يسارع إلى سؤالي هل أنا بخير في كل لحظة، ويعتني بكل مريض على متن الباخرة، فلا يعجبني. إنه أشبه ما يكون بشابٍّ فرنسي، لا سيما حين يتوجّه بالكلام إلى فتاة يغازلها بتلك الطريقة الفرنسية التي لا أدري كيف أصفُها.

---

(1) *Napoléon le Petit* لفيكتور هوغو، وهو كتيّب ينتقد فيه هوغو نابليون الثالث.

ها أنا الآن جالسة في السطح الأعلى، قرب الإيطاليين. تساءلَت امرأة فرنسية ذاهبة إلى حجّ القديس بطرس بشكل عابر حين مرّت أمامي ألا أعتقد أني أضيّع وقتي. فأجبتها بل لدي ما يشغلني، وأني آسفة لأني أضيّع وقتي هكذا أثناء السفر.

روما، 29 سبتمبر.

أمس، غازلني فيودور ميخايلوفيتش من جديد. قال إني أحمل محمل الجد أموراً لا تستحق ذلك . أجبته أن وراء ذلك سبب لم تتح لي الفرصة بعد كي أكشف له عنه. قال إني فريسة لنزعتي النفعية. فأجبته أني لا أستطيع أن أستسلم للنفعية حتى إن كان لدي شيء من الرغبة. لم يوافق على كلامي، وقال إن لديه دلائل على ما يقول. لا شكّ أنه كان يريد أن يعلم سبب عنادي وتمنُّعي. فحاول أن يخمنه.

أجبت عن افتراضاته المختلفة قائلة: «إنك لا تعلم شيئاً، فليس الأمر كما تتصوّره».

كان يعتقد أن عنادي وتمنُّعي نابعان من نزوة ورغبة في تعذيبه، فقال: «تعرفين، لا ينبغي أن تعذبي رجلاً مدة طويلة، إذ لا بدّ أن ينتهي به الأمر إلى التخلي عن إلحاحه». لم أستطع منع نفسي من الابتسام، وكدت أسأله لماذا قالَ هذا الكلام، لكنه أردف مؤكّداً (وقد علمتُ فيما بعد أنه لم يكن متأكّداً ممّا قاله): «هناك سبب جوهري وراء ذلك، سبب يشعرني بالتقزُّز: سبب مرتبط بشبه الجزيرة»[1].

(1) إشارة خفية إلى علاقة أبوليناريا مع سالفادور في باريس.

أزعجني هذا التلميح كثيراً. قال: «أرى أنه لا يزال لديك أمل». لم أقل شيئاً. قال: «أرى أنك لا تحتجّين الآن، ولا تقولين إن الأمر ليس كما تصورته». لم أقل شيئاً. قال: «أنا لا أكنُّ لذلك الرجل أي شيء، إنه مجرد رجل تافه».

قلت بعد تفكير:

- لا أمل لدي، لم يعد لدي أمل.

- هذا لا يعني شيئاً، إن عقلك يرفض التشبُّث بالأمل، لكن ذلك لا يغيّر من الواقع شيئاً.

ونهض فجأة، ومضى نحو السرير واضطجع. أخذتُ أذرعُ الغرفة جيئة وذهاباً. فتجدّدت أفكاري فجأة، وشعرت ببصيص من الأمل بالفعل. فكان أن عدت إلى التشبُّث بالأمل دون خجل.

حين استيقظ، بدا هادئاً تماماً، منشرحاً، مزعِجاً. بدا كما لو أنه يبحث عن التغلُّب على حزنه المُهين، وعن مضايقتي.

أخذتُ أتأمل تصرفاته الغريبة بدهشة. بدا كما لو أنه يريد أن يسخر من كل شيء كي يؤلمني، لكنني اكتفيت بالنظر إليه بعينَين مندهشتَين. ثم انتهى بي الأمر أن قلت بكل بساطة:

- لا أحب أن أراك على هذه الحال.

- لماذا؟ ماذا فعلت؟

- لا شيء، لكنك كنت في حال أحسن في باريس وفي تورينو. فلماذا أنت منشرح إلى هذا الحدّ الآن؟

قال:

- هذا الانشراح نابع من غيظي.

وخرج، لكنه سرعان ما عاد. وقال رزيناً مغتمّاً: «لستُ على ما يرام. أنظر إلى كل الأمور كما لو أنها واجبات، كما لو أن لدي درساً يجب أن أحفظه، كنت أرغب في أن أسلّيك على الأقل».

عانقته بهياج وأنا أقول إنه فعل الكثير من أجلي، وأني مسرورة بذلك.

أجابني بحزن:

- لا، أعرف أنك سوف تسافرين إلى إسبانيا.

شعرتُ بخوف وألم ممزوجَين بالحنو حين سمعتُ تلميحه إلى سالفادور. يا للحماقة! أيقول هذا بعد كل ما حدث بيننا الآن! ما أعمق هوة المتناقضات في تصرُّفاته نحوي!

من جديد حوّل فيودور ميخالوفيتش كل ما حدث بيننا الآن إلى مزاح، وقال وهو يودّعني إنه يشعر بالمهانة لأنه سيتركني على هذه الحال (كانت الساعة تشير إلى الواحدة صباحاً، وكنت مضطجعة على سريري عارية). وأردف: «لأن الروس لا يتراجعون».

نابولي، 6 أكتوبر.

في روما، صادفت في الطريق موكباً. كان حشد كبير قد تجمّع يشاهد لصَّين شابَّين (عشرون سنة، وست عشرة سنة) يقادان إلى السجن. وكانت النساء يتوقّفن ويشرئبن برؤوسهنّ من العربات متطلّعات إلى المشهد.

وفي نابولي، في أول يوم وصولنا إليها، أعطتني امرأة وردة صفراء حين خرجنا إلى الشارع، وشرعَت تطالبني بمال. شاهدت

كثيراً من أمثال تلك المرأة في اليوم الأول من وصولنا، لكني لم أصادفهنّ في الطريق فيما بعد. حتى الأطفال يضايقونك في الطريق طالبين صدقة [غير مقروء] وإذا منحت أحدهم صدقة يهرعون إليك جميعهم. أما إذا لم تجد عليهم بشيء، فيشحذون بكل الوسائل: يضحكونك، يغضنون وجوههم، يتشقلبون، يرفعون أسمالهم معرّين عن أجسادهم. وحين تمنح حوذياً بقشيشاً، يهرع إلى تقبيل يدك. وفي الشارع، حين تسأل عن الطريق إلى مكان ما وأنت لا تجيد لغتهم، يهرولون إليك جميعاً كي يرشدوك. بالأمس، ذهبت إلى الكولوسيوم. قال الجندي الذي قادني إليه على الفور إنه أدرك أني روسية، لأنه قرأ ذلك على وجهي. صادفت في خان قرب الكولوسيوم رجلاً يتكلم الروسية، فأخبرني على الفور أن حالة الطقس تغيّرت تغيُّراً مفاجئاً خلال أيام قليلة. (كان قادماً من سان بطرسبورغ)، ثم أخذ يتحدث عن مدينة جنوى المملّة، التي لا تضيف إلى عقل السائح شيئاً يذكر، والتي لا يحبها وإن كانت أرضه وأرض أجداده منذ سبعمئة عام، أرضه التي يملكُ فيها ضيعة.

وكان لديه ما يكفي من الوقت كي يخبرني أن له في روسيا زوجة وعشرة أطفال، وأنه يعرف روسيا جيّداً، لأنه كان مشرفاً على إدارة إحدى الضِياع هناك، وأنه أتى إلى نابولي من أجل العمل.

أثناء سفرنا بين روما ونابولي، قاموا بتفتيشنا مراراً، وطلبوا الكشف عن جواز سفرنا بإلحاح غير ما مرة.

باريس، 22 أكتوبر.

عدت إلى الفندق اليوم على الساعة الرابعة، وعلى الساعة الخامسة ذهبت لزيارة «م». حين وصلت سألت الحوذي عن ثمن الرحلة (وإن كنت أعلم أن عليّ أن أؤدي فرنكين اثنين). قال: فرنكان. فناولته إياهما. وفجأة، طلب مني عوض الفرنكين فرنكين ونصف. فأديتها دون أن أنبس ببنت شفة. حمل حقيبتي إلى الفناء (وهو ما لا يفعله الحوذيون هنا) وحاول أن يخدمني. لعلّه خجلَ من تصرفه. طرقت باب منزل «م»، وعلى الرغم أن الساعة لم تتجاوز الخامسة، والناس لا يزالون نياماً، فقد هرعت السيدة «ر» إلى استقبالي، وسألتني هل أنا جائعة، وشرعَت تجهّز سرير نومي، وصعدت بوجبة الفطور إلى غرفتي، وأخذَت تحوم حولي من دون توقف.

أتكن لي كل هذه المحبة وما جُدت عليها إلا بتنورة في يوم من الأيام... يا لهؤلاء الفقراء المساكين! حين خرجت لشراء المِداد، التقيت بكاترين فسألتني هل أنا في حاجة إلى المداد، واقترحَت أن تبحث لي عنه، فوافقت لأنني كنت أنوي أن أهديها، حين تزورني، أزراراً صالحة لحواشي القمصان كنت قد اشتريتها من نابولي. فرحَت كاترين بالهدية، ورجتني أن ألجأ إليها دائماً إذا احتجت أي شيء.

يا لهم من فقراء مساكين!

على متن الباخرة، في الطريق نحو نابولي، التقينا بهيرزن[1] رفقة

(1) ألكسندر هيرزن (1812-1870)، فيلسوف وكاتب سياسي روسي، ويعتبر الأب الروحي للاشتراكية في روسيا.

أسرته. قدمني فيودور ميخايلوفيتش إليه على أني واحدة من أفراد عائلته. لم يكن واضحاً. كان يتصرف معي في حضرتهم تصرف أخ مع أخته، وإن بدت تصرفاته معي أكثر حميمية على العموم، ما أحرج هيرزن. قال له فيودور ميخايلوفيتش كثيراً من الأشياء عني. كان يستمع باهتمام. تجاذبت أطراف الحديث مع هيرزن الأصغر[1]. إنه شاب يائس. وأنا أحدّثه عن انطباعاتي اتجاه الغرب، قلت إني لم أصادف إلا الدناءة في الغالب حيثما حللت أو ارتحت. فردَّ بأن الدناءة لا نصادفها في الغرب في الغالب فحسب، بل نصادفها في كل مكان على الدوام. حين رآني فيودور ميخايلوفيتش أحدّثه بحماس، مرّ أمامنا دون أن يتوقف. ناديته، فسرّه ذلك. قال هيرزن الابن إنه سوف يزور باريس خلال فصل الخريف المقبل، ويزورني بالمناسبة. وطلب مني عنواني، ولكنه سرعان ما أردفَ أنه سيحصل عليه من [اسم غير مقروء]. أخبرتُ فيودور ميخايلوفيتش بما وعدني هيرزن الابن، فنصحني أن أعطيه عنواني. حين حانت لحظة الوداع (في ليفورنو) سلّمتُ عنواني لهيرزن الابن. رافقَ فيودور ميخايلوفيتش هيرزن، ثم زارهما في الفندق الذي ينزلان فيه. وحين عاد، دعاني قلقاً إلى أن أن أكتب إليه إذا زارني هيرزن. فوعدته بذلك. فيما عدا هذا الأمر، لم يقل شيئاً عن هيرزن الابن. ولكن ما أن بادرتُ إلى الحديث عنه دون حرج حتى كشف عن رأيه فيه، وهو رأي ليس في صالح هيرزن الابن على العموم. وأضاف أنه رأى في غرفة هيرزن في الفندق البطاقة التي أعطيته وعليها عنواني، وجملة من جُمل والده: «لو لم يكن الإنسان يملك إلّا الذكاء، لما استطاع أن يحقّق ما حققه حتى الآن».

---

(1) ابن هيرزن (1839-1906)، وقد أصبح فيما بعد عالماً فيزيزلوجياً شهيراً.

كنا قد تشاجرنا يوم مغادرتنا نابولي، لكن حين التقينا هيرزن على متن الباخرة تأثّرنا، وتركَ اللقاء في أنفسنا انطباعاً حسناً، فتصالحنا بعد نقاش طويل (كانت قضية تحرير المرأة سبب خصامنا). ومنذ ذلك اليوم، لم نتخاصم أبداً. وعدنا كما كنا من قبل الخصام، وتركته على مضض.

كتبَت إليّ أختي تخبرني أن الأمور صعبة في الجامعة بسبب تصرفات الطَّلَبة الفظة المألوفة، وسألتني أن أستعلم عن إمكانية التسجيل في جامعة باريس. أعتقدُ أن الأمر ممكن. نعم، لكنني سأستعلم عنه أكثر من السيد إميل. لقد اتّضح لي أن السيد إميل شابّ رزين. والغريب في الأمر، أني كنت أشعر نحوه من قبل شعوراً مناقضاً...

ما أن عدت إلى منزلي حتى شعرت بالنوم، فاضطجعت، إلا أني لم أستطع النوم. كانت أفكاري تتشوّش، لكنها سرعان ما تتضح... تذكّرت لحظة مغادرتي باريس... وأخذت أفكر، فشعرت بالأمل يعود من جديد، رغم أنفي. هل كان أملاً في أن أجرح، أن أنتقم، أم في شيء آخر؟... كان قلبي يعاني ويطالبُ بحقّه. آه كم كان يؤلمني في تلك اللحظات، كم كان يتقلّب! حين خرجت للتنزُّه، وجدت نفسي في شارع سان-دوني، ثم قرب سانت-أندريه-دي-زار. آه يا قلبي المسكين، ما جدوى الكذب؟ حين عدت إلى منزلي، دخلتُ إلى غرفتي، فرأيت على الفور لطخةً على الأرضية. إنه أثر الأوراق التي أحرقتها يوم التقينا آخر مرة.

ما أشدّ اشمئزازي من باريس!

27 أكتوبر.

توصلت أمس برسالة من فيودور ميخايلوفيتش. خسرَ في القمار وبعث يطلب مني أن أبعث له مالاً. لم يكن لدي مال، فقد كنت أعطيت كل ما معي للسيدة مير. قررت أن أرهنَ ساعتي اليدوية وسلسلتي، وطلبت من توم أن ينصحني. فاقترح عليّ أن أطلب من «م» نقوداً، في حالة ما إذا لم يكن ما حصلت عليه من الرهن كافياً، كما وعدني أن يمنحني هو نفسه بعض المال، فقد كان لديه خمسون فرنكاً. لكن السيدة «م» أقرضتني ثلاثمئة فرنك على أن أعيدها إليها بعد شهر واحد. وجدت صعوبة في إرسال المال، إلا أن توم دلّني على ما ينبغي أن أفعله، فذهبتُ إلى مكتب البريد غير أني لم أهتدِ إلى الطريق. صادفت ألخازوف[1] في الطريق، فشرحَ لي ما ينبغي أن أفعله. لكن الأمر لم يكن سهلاً، فقد كان عليّ أن أعود إلى المنزل، ثم إلى مكتب البريد. ما أن وصلت حتى هبَّ «ت» لنجدتي. حين كنت أتحدث مع موظف البريد عن الرسالة، دخلَ إلى المكتب شاب يشبه باسكوف. كان يقف خلفي. التفتُّ إليه، ورشقته بنظرة قاسية. كنت متأكدة أنه باسكوف، فسألت توم عنه. لكن الشاب ابتعد، وأخذ يقرأ الإعلانات على الحائط. حين كنت أبتعد نظرت إليه وإن بغير إلحاح، فتأكدت أنه هو. لقد رأى بأمّ عينَيه لماذا أتيت إلى

---

(1) بيوتر ألخازوف طالب في جامعة بطرسبورغ، كان قد اعتقل بسبب مشاركته في الاحتجاجات الطلابية، وسجن سنة 1861. وفي شهر ديسمبر من السنة نفسها أُطلق سراحه، غير أنه بقيَ تحت المراقبة. ولا نعلم إن كان ذهابه إلى باريس قد تم سرّاً أم بإذن من السلطات الروسية.

مكتب البريد، وسمعني أذكر مدينة هامبورغ، ورآني أبعثُ بالمال الذي أخرجته من محفظة نقودي، وهذا يعني أن القضية قضيتي، وأن الرفيق الذي رآه لم يأتِ إلى البريد إلّا لكي يساعدني.

تجاذبنا أطراف الحديث اليوم أثناء جلوسنا إلى مائدة الطعام عن المقاهي. قال أحدهم إن المقاهي غير موجودة في لندن، لذلك ينفقُ الرجال وقتاً أكثر في المنازل، وهو ما يروق للنساء طبعاً. قالت سيدة من بين الحاضرين إن النساء ربما يعتقدن أن المنزل يبدو مرحاً أكثر حين يكون الرجل خارجه. لكن صاحب المقهى ردَّ بأن النساء عديمات الشرف هنّ اللواتي قد يعتقدن هذا الاعتقاد. ثم أخذ يدافع عن المقاهي، لأنها تسمح للأصدقاء بأن يلتقوا ويتحدثوا في أمور السياسة. قال رجل إنجليزي مدعّماً رأيه: «إن الروس مثلاً ليسوا في حاجة إلى مقاهي لأنهم لا يعيرون السياسة أي اهتمام». كنت أودُّ أن أجيبه بأنه لا يعرف شيئاً عن الشعب الروسي وعن التاريخ.

9 نوفمبر.

قبل أسبوع بعثت إلى سالفادور الرسالة التالية:

«أجدني مضطرة إلى الكتابة كي أسألك هل توصلت بالرسالة التي بعثت إليك في نهاية شهر أغسطس. وذلك لأنني خائفة أن تكون قد ضاعت بسبب ظروف لا شكّ أنك تعرفها جيّداً. لا بدَّ أن تخبرني بأنك توصّلت برسالتي، لأنني بعثت بها لأقول لك ما أريد أن أقوله. يرى البعض أن الرسائل التي يبعَث بها بالطريقة التي بعثتُ بها رسالتي لا تضيع عادة، لكنها آراء لا تطمئنني، فأنا لست في حاجة

إلى آراء ولكن إلى أن أعلم علم اليقين أنك توصلت برسالتي. أنت تعرف جيّداً أنها قضية تجارة، وليست قضية شخصية. إنك لم تردّ على الرسالة الأولى ولم تردّ على الثانية التي لم تكن تتطلب جواباً على كل حال.

وإذا لم تجب على رسالتي هذه، فسأتأكد أنك لم تتوصل بالتي بعثت بها في شهر أغسطس، وأبعث إليك برسالة أخرى».

الأحد، 15 نوفمبر.

لم أتوصل بأية رسالة من سالفادور، فبعثت برسالة أخرى، وبداخلها قليل من المال (لم يكن لدي مال، فرهنت خاتمي). ها هي ذي الرسالة:

«إن صمتك، سيدي، ليؤكد أنك لم تتوصل بالرسالة التي بعثت بها في شهر أغسطس، أو أنك ترغب في أن تتوصل برسالة أخرى غيرها، على الأقل. فها أنا أبعث إليك بالرسالة نفسها مع ملحقاتها كما وعدتك. إذا كنت قد بعثت إليك بخمسة عشر فرنكاً، فلكي أؤدّي ذلك الدّين الذي كنت قد قبلته منك من باب الصداقة التي كانت بيننا آنذاك. لا أريد أن أظلَّ مُدينة لك بشيء، لأن مبادئي تأبى عليّ أن أبقى مُدينة لأشخاص لا أقدّرهم. كنت قد كتبت في الرسالة الأولى أني لا ألومك على شيء إلّا كما ألوم حجراً سقطَ على رأسي في الشارع صدفة، ولو أنك كتبت إليّ معترضاً على ما ورد فيها، لنظرت إليك نظرة مختلفة، أي كما أنظر إلى شخص نبيل. والحال أن هذه الحيطة تبدو لي الآن عديمة الجدوى... لأن من هم على

شاكلتك يتميّزون بغريزة الحفاظ على النوع. . . وإني لأتنبّأ، بناء على ذلك، بأنك ستكون من المعمّرين، وستعيش سعيداً.

حين بعثت إليك هذه الرسالة، اتخذت كل الحيطة اللازمة كي لا أُخدع لأني أجنبية».

بعثت بها عبر وسيط، وطلبت منه أن يسلمه إياها يداً بيد، وأن يطلب منه التوقيع على وصل استلام. وأخبرته أني سبق وأن بعثت برسالتَين اثنتَين قبل هذه الرسالة بالطريقة نفسها، وأنهما ضاعتا رغم ذلك. وطلبت منه أن يقول هذا الكلام إلى سالفادور نفسه.

اتركوني أموت إلى جانبكم يا إخوتي.

مذكّرات سفر

لم أشاهد ألمانيا. قضيت يومين فقط في برلين، ثم عدت إلى باريس رأساً. كنت أريد أن أزور متحف درسدن، وأن أتجوّل على ضفة الراين، لكن كان يكفي أن أنظر إلى الألمان كي أتخلى عن هذا المشروع. كدت أجنّ بسبب ما رأيته من الألمان. وإن بطء موظفي السكة الحديد وإعجابهم بأنفسهم ليدعوان إلى الدهشة حقاً.

لا شكّ أن الرب تخلى عن هذه الأُمّة التعيسة. بقيت عالقة ذات مرة في محطة القطار بسبب الموظفين، وأخطأت الجهة التي كنت أريد التوجُّه إليها بسببهم مرة ثانية. وقد حدث ذلك في كلتا المرتين أثناء تغييري للعربة.

باريس، الاثنين 16 نوفمبر.

ذهبت أمس إلى الوسيط الذي كنت قد بعثت معه الرسالة إلى سالفادور، وحين لم أجده عرجت على حارس العمارة كي يخبره أني أنتظر زيارته في منزلي على الساعة السادسة... لكن الوسيط لم يأتِ اليوم، فعدت إلى منزله بنفسي. بالكاد كان ينظر إليّ أسأله عن قضيتي وتطوراتها. أعاد إليّ الرسالة وهو يقول إنه لم يعثر على سالفادور وأن الناس لا يعرفونه في العنوان الذي على رسالتي، بل يؤكّدون أنه لم يقطن في هذا العنوان يوماً. أغضبني ذلك كثيراً. لا شكّ أن سالفادور لا يجيدُ الكذب، فقد كان يمكن أن يقول إنه ليس غائباً عن منزله، عوض أن يحاول إقناعي بأنه لم يسكن يوماً في ذلك المنزل. بعثت بالرسالة عبر البريد.

وكتبت إلى سالفادور على الفور رسالة، هذا نصّها:

«لم أكن أريد أن أكتب إليك، وما كنت لأقدم على ذلك لو لم تقرر أن تتجنّبني. لقد رشوت ذلك الوسيط المسكين كي يقنعني أنك غير موجود في المنزل، بل لم تكن في يوم من الأيام تقطن فيه. وقد كان يمكن أن أصدّق لو لم يكن قد سبقَ لي أن بعثت إليك رسائل إلى هذا العنوان نفسه، وتوصلت بأجوبة عليها... إن هذه الحيلة الخرقاء التي أقدمت عليها تمنحني الحق في أن أعتقد أنك توصلت بكل رسائلي السابقة. وأرجو أن تجيبني بالتأكيد أو النفي. فأنا لا أريد أن أتّهم أناساً شرفاء بأنهم استولوا على المال الذي أرسلت إليك، لأن في مثل هذا الاتّهام إهانة لهم. إذا لم ترد عليّ بالإيجاب، فسأضطر إلى التوجه إلى السفارة كي أطلب من الشرطة

الفرنسية أن تبحث عن سارق رسالتي الأولى. لا تتجنب الرد الصريح إذاً، وإلا ورطت نفسك أكثر، كما هي عادتك على العموم».

17 نوفمبر.

حين نزلت من غرفتي اليوم لتناول وجبة الفطور، أخبرتني السيدة «ر» أن رجلاً أتى يسأل عني، وقال إنه سيعود. دهشت أن يقدم أحد على زيارتي. وانصرف تفكيري إلى سالفادور على الفور، فارتفع خفقان قلبي. سألتها:

- هل هو شاب؟

- نعم، وطويل القامة.

سألتها وقد ظننت أنه هيرزن:

- ذو لحية؟

- لحية سوداء.

تساءلت: من يا ترى؟ نُودي عليّ بعد الغداء، فقد كان هناك من يرغب في لقائي. إنه شاب، طويل القامة، رشيق القوام. قال إنه مبعوث من طرف سالفادور. احمرَّ وجهي، وأخذت أرتعش. تناولتُ شمعة، ودعوته أن يتبعني إلى غرفتي. حين دخل دعوته إلى الجلوس على المقعد، وأغلقتُ الباب. ثم جلست وأنا أسأله عمّا دعاه إلى زيارتي (كان صوتي في غاية الاضطراب)، فناولني خمسة عشر فرنكاً وهو يقول إن سالفادور توصل بها في شهر أغسطس، وأنه لم يعد يرغب فيها.

لا شكّ أن الزائر شقيق سالفادور، فقد سبق له أن أطلعني على صورته في يوم من الأيام... يا له من نموذج جذّاب للرجال المزارعين! لياقة، وأناقة، ورزانة. حين قال إني جرحت سالفادور شرعت عيناه تبرقان. لقد كان متأكداً أني جرحت سالفادور حقاً؛ أجبته أني لا أستطيع أن أتحدث عن قضية تخصُّ سالفادور مع شخص غيره. لم أحسن التعبير عمّا يختلج في نفسي، لأن درجة انفعالي أنستني كل الكلمات الفرنسية. قمتُ من على مقعدي معلنة أنه لم يعد لدينا كلام نتبادله. فاقترح أن يسلّمني عنوان سالفادور لأني قد أكون راغبة في الكتابة إليه. لكني أجبته أني لست في حاجة إلى عنوانه على الإطلاق، ورافقته إلى الباب وأنا أضيء طريقه بالشمعة. طلب مني أن لا أزعج نفسي، لكني أصررت على مرافقته حتى الباب رغم ذلك، ثم عدت إلى الصالة حيث كانت الموسيقى تصدح، غير أني سرعان ما صعدت إلى غرفتي. كنت أشعر بقلق عميق يضغط على قلبي، فشرعت أقرأ بصوت عالٍ: «قدني إلى الطريق الشائك»... إلخ، كما يقرأ الناس دعاء ما درءاً لإغواء الشيطان، فأحسست بتحسُّن.

الثلاثاء، 24 نوفمبر.

يا لها من حكاية غريبة! في منزل مير يسكن شاب إنجليزي تجاذبتُ معه أطراف الحديث غير ما مرة. إنه شاب صغير السنّ في غاية الرزانة. وقد صادفَ غير ما مرة أن مكثنا في الصالة نتجاذب أطراف الحديث عن الفرنسيين وعن التيارات الاجتماعية في روسيا بكثير من الرزانة. كنت أول من يبادر إلى الحديث في كل مرة. ثم ما

لبثت أن انقطعت عن التوجُّه بالكلام إليه، ولكنني لم أتخلَّ عن النزول باستمرار إلى الصالة حيث يجلس.

أصبحنا نلتزم الصمت كلانا كلّما التقينا.

وها هو ذا يعلنُ يوم الأحد (22 نوفمبر) أنه سيعود إلى بلده بعد يومَين. في ذلك اليوم كنت حزينة. كنا حول مائدة الغداء، لكني لم أتناول إلا القليل من الطعام. انتبه البعض إلى ذلك (توم، والسيدة مير). كنت أشعر بالملل، لأنني أحسُّ بالوحدة. فقد ذهبت السيدة مير و«أ»، وتوم، والآخرون إلى حفل موسيقي، ولم يخبروني رغم أني كنت قد أعربت لهم عن الرغبة في الذهاب إلى حفل موسيقي في يوم من الأيام. قلت في نفسي: «فليذهبوا إلى الجحيم جميعاً». وبعد الغداء، شرعت أتحدث مع الشاب الإنجليزي. طرحت عليه أسئلة عن جون ستيوارت ميل، فاستجاب لرغبتي في الحديث بحيوية. شاركَنا ألخازوف الحديث. فحدثتهم عن شاب صادفته في الخزانة، فأخذ يقترب مني بين اللحظة والأخرى وهو يطلعني في الكتاب بين يديه عن مقالة حول الحب لفيلسوف ما، ويسألني عن رأيي في ذلك، ما جعلني أضحك كثيراً.

في تلك المقالة، يقول الكاتب إن الإنسان خُلق كي يفكر، لكن كان يجب أن يتميز إلى جانب ذلك ببعض الأحاسيس الأخرى، كالحب، والاعتزاز بالنفس، لأن التفكير غير كافٍ كي يتطوّر.

ضحكَ ألخازوف والشاب الإنجليزي من ذلك كثيراً. وقال ألخازوف لا شكّ أن ذلك الشاب كان لا يزال في بداية الشباب. وسألاني عمَّ أجبته؟ قلت إني أعتقد أنها أفكار تعود إلى العصر الوسيط، وأن الحب والاعتزاز بالنفس قد يوجدان في الواقع، غير أنه

من المضحك أن نتوقف عندهما في حين أن هناك أشياء أخرى أهمّ منهما يجب أن ننشغل بها، وأعمال ضرورية يجب أن ننجزها. فهل من الضروري أن نتشبّث بترفٍ من هذا النوع ونحن في حاجة إلى الخبز، بل منا من يموت من الجوع؟ وحتى بفرض أن لدينا ما يكفي من الطعام، فنحن في حاجة إلى أشياء أخرى غير الأكل، في حاجة إلى ملايين الجنود ورجال الدرك مثلاً كي ندافع عن الحق في الطعام.

تحدثت بكثير من الحماس وسط كثير من الحاضرين، من بينهم على سبيل الذكر لا الحصر ويليام[1] الذي كان جالساً إلى جانب الشاب الإنجليزي، ويحادثه من حين لآخر. قال لي الشاب الإنجليزي: «لقد لاحظ هذا الشاب (وأشار إلى ويليام) أننا نستلطف بعضنا».

قلت:

- ربما.

قال هو أيضاً:

- ربما، وماذا عن الشاب في الخزانة؟

أجبته وأنا في غاية الحبور:

- وما المانع؟ فأنا لست ملكاً لأحد.

ضحكنا كثيراً. يبدو أن جوابي الشجاع أعجبَ الشاب الإنجليزي.

عادَ إلى حكاية الشاب قائلاً إنها حكاية مضحكة، ولكنها قد تكون في غاية الأهمية على الصعيد الشخصي. وأضاف أن ذلك الشاب قد يكون ممّن يولون أهمية خاصة للحب والاعتزاز بالنفس.

---

(1) أحد أصدقاء هيرزن الذي أتى من لندن، على الأرجح.

قلت: لا يحق لي أن أجزم بهذا الأمر. وفجأة، قال الشاب الإنجليزي إنه سيحاول خلال هذا العام أن يشرح لي رأيه في الحب... وفي الطموح. فأخذت أنظر إليه ذاهلة. لم تكن السيدة مير تجلس بعيداً عنا حين قال ذلك. وأردف:

- هذا يعني أني سأحاول أن أتعلم الفرنسية جيّداً خلال هذه السنة.

ولمّا حلَّ الغد، والتقينا حول مائدة الغداء، بدا منغلقاً على نفسه. سأله «مار» عن عنوانه في لندن، لأنه ينوي أن يزوره في شهر يناير، أثناء سفره إلى إنجلترا.

سألت السيدة مير الشاب الإنجليزي:

- هل ستعود إلى باريس في شهر يناير؟

أجابها ببرود:

- **ربما.**

وبعد الغداء، عرجت على الصالة كالمعتاد، فأقبلَ الشاب الإنجليزي بعد قليل. ومكثنا جالسين رأساً لرأس لحظات بدا خلالها حزيناً صموتاً.

ولما حلَّ الغد (أي اليوم) سألته السيدة مير:

- هل أنت مسافر غداً يا سيدي؟

فأجاب:

- لا أدري، لم أحسم أمري بعد.

شعرت برغبة شديدة في أن أنفجر ضاحكة، فاستندت إلى ظهر الكرسي لعلّي أهرب من نظرة الشاب الإنجليزي. والحال أن فضولي

كان يدفعني إلى أن أعلم ما سيقرِّره بعد كل ما حدث . لكنه لم يقرّر شيئاً .

ورغم كل ذلك، فأنا لا أحب إلا سالفادور.

مكتبة
t.me/t_pdf

السبت، 5 ديسمبر.

أمس، ارتدت مقهى لا روتوند حيث التقيت بطبيب شاب يحمل الجنسية الهولندية، ولكن يمكن أن نعتبره روسياً: **فهو يتكلم ويفكر** باللغة الروسية، وولد في روسيا ونشأ فيها، ويريد أن يخدمها. زارني أمس، فتحدثنا كثيراً. يا له من شاب غريب! حين قلت في معرض كلامي عن أمر ما إن الناس إذا أقدموا على مثل ذلك الأمر فسيكون في إقدامهم عليه إهانة لهم، وانتكاسة إلى المرحلة الحيوانية، أجابني: «أنت أرستقراطية إذاً». وشرع يحاول أن يقنعني بأن الحيوانات أذكى من الإنسان، لأنها تعرف كيف تتعامل مع الإنسان وتفهمه، بينما الإنسان يتعامل مع الحيوانات تعامل الأوغاد. فهو يعتبر الخيول من القديسين، ولا يحترم عادة إلا الجهاز العصبي، فلا يسمح لنفسه أبداً بأن يتلاعب بأعصاب الحيوانات، وأن الدِّين وسيلة عظيمة لمواجهة الأوغاد. وحين أعربت عن رغبتي في السفر إلى أميركا، أجاب بأنه لا يوجد شيء طيب هناك، وأن من أراد أن يشاهد الثعابين فعليه أن يزور «حديقة النباتات»، فذلك خير له، لأنه لن يشاهد الثعابين عندئذ إلا من خلف سياج.

إنني أكره باريس، لكن لا أستطيع تركها رغم ذلك. وقد يكون مردّ ذلك أن هذه المدينة قد تكون بمثابة خشبة نجاة بالنسبة إلى من

لا مكان لديهم يلجؤون إليه، ولا هدف محدد. إن الرغبة في السفر إلى أميركا تستحوذ عليّ... رغم الوجوه الجديدة، ورغم انشغالاتي الجديدة، فإن فكرة واحدة تلاحقني... ما الذي يشدّني إليه؟... هل أنا مشدودة إلى ضيق فكره الذي يمنعه من أن يحكم على بعض الأمور حُكماً صائباً؟ لا، إنما أنا مشدودة إليه لأنه ليس هناك رجال حقيقيون، ولأن كل ما شاهدته من تصرفات الرجال الآخرين لا يعبِّر إلا عن الدناءة والتفاهة في أقصى درجات تجلّيهما.

السبت، 12 ديسمبر.

زارني زادلر اليوم، فقال:

- تعلمين، نحن نريد السفر إلى إنجلترا في جماعات صغيرة، فلتسافري معنا إذا كنت ترغبين في ذلك.

- لماذا لا. لكن كيف؟ ومتى؟

- عمّا قريب، ويستحسن أن نسافر في أقرب أجل، لا سيما أن السفر إلى إنجلترا لا يكلِّف أكثر من 37 فرنكاً ذهاباً وإياباً، والتذكرة صالحة لمدة شهر، لكن نستطيع أن نكتفي بأسبوع واحد نشاهد خلاله ما نريد أن نشاهد ثم نعود.

- فعلاً، إنها فكرة لا تخلو من أهمية.

- فلنسافر إذاً.

- فلنسافر، ولكن كيف؟ هل تجيد اللغة الإنجليزية؟

- لا، لكن لا يهم. نستطيع أن نتعلمها.

- كيف؟ ومتى؟

- يجب أن أعجّل بالبحث عن أستاذ، فنتردّد على دروسه أسبوعاً واحداً سيكون كافياً لنتعلم اللغة الإنجليزية.

- ماذا؟ أسبوع واحد فقط؟

- طبعاً، وهل نحن في حاجة إلى مدة أطول؟ ما علينا أن نتعلم إلّا عبارات من مثل «هات هذا الشيء»، «احمل إلينا ذاك»، «أين يوجد الشارع كذا»، «من فضلك»، وهذا كل شيء.

- في أسبوع واحد! هل أنت جاد؟

- لا تتعبي نفسك كثيراً في التفكير في هذا الأمر. فلنشرع في الدراسة منذ الغد، وسأبحث عن الأستاذ منذ اللحظة. هل هناك ما يعقّد هذا الأمر؟ أليس معك قاموس إنجليزي مليء بالكلمات الإنجليزية؟ وفتح القاموس وهو يقول: «ها، هل هناك ما هو معقّد في هذه اللغة؟ لقد أقدمت على تعلُّمها فيما مضى. انظري إلى هذه الكلمات مثلاً: «أضاء»، «انفجر»، لا، لن نحتاج إلى هذين الكلمتين، فلنلقِ نظرة على صفحة أخرى «خزف»، «دهليز»، ولن نحتاج هذه الكلمات أيضاً... «حجر السماق»... لا... آه، انظري إلى هذه الكلمات مثلاً: **عاد... استدار... ذهب.** لكي نسأل شخصاً: «سيدي، هل لي أن أسألك كيف ننعطف إلى الشارع الفلاني؟» سنحتاج إلى بضع كلمات فقط. سبق أن عرفنا كلمة «عاد»، علينا الآن أن نبحث عن: «هل لي»، ثم «شارع»... نعم سنتكلم الإنجليزية، فهي ليست صعبة. سوف نشاهد الشوارع، والعمارات، وسوف نذهب إلى المسرح، ومقرّ البرلمان، لا بدَّ أن نلتقي بـ«بَالمرستون»[1]، ونصيح: «عاش بالمرستون»، نعم سنصيح.

---

(1) الوزير الأول البريطاني آنذاك.

حين سافرت إلى برلين، زرت مقرّ مجلس النواب، وصحت: «هورا، هورا». انتظري، ما هو فعل «رأى» باللغة الانجليزية؟ To see، أرأيتِ؟ علاوة على ذلك، واضح أن اللغة الانجليزية تشبه اللغة الألمانية. فلنسافر إذاً.

- فلنسافر.

- عظيم، التذكرة ثمنها 37 فرنكاً، وسنحتاج، بالإضافة إلى ثمن التذكرة، إلى خمسين فرنكاً للمصاريف المختلفة، وعشرة فرنكات في اليوم من أجل الأكل، لن نحتاج في المجموع إلّا إلى مئة فرنك. وسنختار فندقاً بئيساً ننزل فيه، فمثل هذه الأمور لا تهمنا في شيء.

ثم شرع يحكى لي عن تصرفات بعض الأساتذة مع تلامذتهم:

«يدخل أستاذ مسنّ في الستين من عمره لإلقاء الدرس، فيقول: طيب أيها السادة، سوف أبدأ، دوّنوا، اسمعوا، أنت هناك في الخلف لماذا لا تكتب؟ وأنت، إلام تنظر؟ هل تحتجّون على درسي؟ وهل تجرؤون؟».

- لقد احتجَّ الطَّلَبة على الأستاذ الفلاني منذ مدة قصيرة.

- كيف؟ كيف؟

- احتجّوا على الأستاذ «ج»، احتجّوا على رأيه في الموضوع الفلاني.

- ماذا؟ ماذا تقولون؟ لدي الرأي نفسه في هذا الموضوع أنا أيضاً، فلتحتجّوا إذاً.

- لا اعتراض لدي على هذا الرأي يا سيدي الأستاذ، بالعكس. كل ما قلته هو أنهم احتجّوا على الأستاذ «ج».

- آه، فأنت تناصر هذا الرأي إذاً؟

- كل النصر.

- عظيم، هات يدك إذاً.

أتى زادلر بكتاب لتيير سبق أن قرأه، وقال إنه شعر بالخجل من أجل الإنسان أثناء قراءة صفحات كتاب **الحلف المقدس**، وبعد أن انتهى من قراءته شعر بالخجل من انتمائه إلى الجنس البشري.

السبت، 12 ديسمبر.

كل شيء في باريس قابل للبيع، كل شيء مخالف لطبيعة الأمور وللرأي القويم. سأقول -أنا الغريبة عن هذا البلد- كلمة سبق أن قالها أحد الغرباء عن مدينة روما: «سيهلك هذا الشعب». وإن ألمع المفكّرين الأوروبيين ليرون الرأي نفسه[1]. هنا، كل شيء قابل للبيع، كل شيء: الضمير، الجمال... وإنك لتستطيع أن ترى هذه النزعة التجارية في كل مكان، وفي كل الأوضاع، وفي الكلام المنمّق، وفي القدود الرشيقة، وتسريحات الفتيات اللواتي يتجولن في الشوارع مَثْنى مَثْنى. وتشعر بذلك أكثر حين تعيش وحدك. لقد بلغت من التعود على أن أؤدّي مقابلاً عن كل شيء: عن الأجواء الدافئة لسكني، عن الترحيب... بحيث أصبحت أستغرب أن أحصل على شيء ما دون مقابل. حين أسألُ شخصاً ما في الشارع

(1) تلميح إلى كتاب هيرزن **نهايات وبدايات** الصادر سنة 1863، و«ذكريات شتاء عن مشاعر صيف» لدوستويفسكي الصادر في السنة نفسها في مجلة **الزمن**.

عن مكان ما، أشعر بالحرج، بل بالخوف رغم أنفي من أن يكلفني ذلك أكثر ممّا توقعت، كما حدث معي ذات مرة. . .

الأربعاء، 23 ديسمبر.

أحياناً، تُغرقني ترّهات البشر في اليأس. هذا ما حدثَ يوم الأحد الأخير: أخذ صاحب النُّزُل يدافع عن زواج المصلحة، ولم يحاول أحد أن يعارضه بكل جدية، وذلك لأنهم كانوا عاجزين عن معارضته. كانت أجوبتهم غريبة لم أسمع بمثلها من قبل. قال أحدهم مثلاً، وهو يعارض رأي المالك، إننا إذا تزوجنا بهذه الطريقة قد نخطئ، فنقع على امرأة فاسدة الأخلاق. لكن المالك عقّب على اعتراضه قائلاً إننا لا يمكن أن نخطئ في هذه الحالة، لأننا نستطيع أن نجمع المعلومات الدقيقة الكافية عمّن سنرتبط بها. وكان على صواب. لقد أوهن ما سمعته منهم معنوياتي بحيث أني غادرت المنزل، وذهبت للتنزُّه. طفت في الشوارع كثيراً، كنت كالتائهة، لا أدري وجهتي؛ كنت أمشي وأنا أبكي. . .

شرعت في تعلم اللغة الإسبانية. يهمّني ذلك كثيراً، وأحب مراحل التعلُّم. أحس بالسعادة وأنا أتعلم الإسبانية، لكن يحدث أحياناً، وأنا أتعلّم، أن تغزوني ذكرى ذلك الرجل دفعة واحدة، فينقبض قلبي متألِّماً.

التحقَ بنا اليوم مكتريان جديدان: أميركيان (من أميركا الشمالية). إنهما يعجباني، لا سيما أحدهما: إن وجهه ليعبِّر عن الحيوية والرزانة. أخذَ ينظر إليّ نظرة مهتمة جادة، فبادلته بمثلها.

أشكرُ الرب على أنه بعث لنا بشخصَين ينتميان إلى الجنس البشري. لكن هل تسنح لي الفرصة بأن أجالسهما؟

الخميس، 31 ديسمبر.

مكثتُ اليوم بعد الغداء في غرفة الأكل أقرأ رسالة توصلت بها. كان المالك والمالكة وشاب من جورجيا[1]، وشخص آخر لا أذكره الآن، جالسين في الصالة. قال المالك شيئاً عني، فأكدت المالكة كلامه. لم أسمع منها إلّا عبارة: **يا للفتاة المسكينة**... ثم التزمَتِ الصمت (ربما أخبرَها أحد الحاضرين أني لست بعيدة عن مجلسهم). ثم أتى توم، وقال كلاماً تافهاً، وسأل عمّا في الرسالة، وخرج بعد ذلك. حين فرغت من قراءة الرسالة، توجّهتُ نحوهم، وأطلعتهم عمّا جد في قضية تشرنيشيفسكي[2]، لكن سرعان ما غادرت النزل حين دخل رجل غريب.

7 يناير 1864.

منذ مدة غير طويلة، استمعت إلى فرانسيس. لقد أعجبني هذا الرجل كثيراً. إن أفكاره الشُّجاعة، النزيهة الحية، لا تذهب إلى حدّ

---

(1) تقصد نيكولاي نيكولادزي أحد الثوار الذين سجنوا بسبب محاربتهم للنظام القيصري. كان أستاذاً جامعيا بزيورخ، وينشر كتاباته الصحفية في مجلة **الجرس** التي يديرها هيرزن.

(2) مؤلِّف رواية **ما العمل** الشهيرة التي أراد ماركس أن يتعلم اللغة الروسية خصيصاً كي يقرأها بلغتها الأصلية. حُكم عليه بأربع عشرة سنة سجناً.

الزعم بأن الغاية تبرِّر الوسيلة. ولغته الجميلة خالية من التشدُّق. إنه تجسيد لمثال الإنسان الفرنسي بامتياز. لقد أعجبت بكل ما يميزه، حتى قوامه أعجبني: فهو شيخ نحيف، ذو وجه معبِّر، وعينين حادتين، وسخرية تعكسها ملامحه لكن يصعب تلمّسها. كل ذلك إلى جانب نوع من البساطة والنبل.

إنه رجل أرستقراطي رشيق القوام، ذو أصابع طويلة ناعمة. لاحظت أنه يجيد مدح الجماهير... ويعجبه ذلك. لقد ترك لدي انطباعاً حسناً، وذلك لأنه مضى زمن طويل لم أسمع كلاماً نزيهاً مؤثِّراً.

ذهبت إلى المكتبة اليوم. منذ ثلاثة أيام متوالية وأنا أتردّد عليها، وبالأمس التقيت، لأول مرة بذلك الشاب الذي سبق أن ذكرته، لكنني غيّرت المكان، فلامني على ذلك حين تبعني كي يلاقيني. وحين دخلت إلى المكتبة اليوم، وجدته قد سبقني إلى المجيء. قال حين مررت به: «أرجو أن تجلسي اليوم حيث جلستِ أمس».

جلست في المكان نفسه، وتجاذبنا أطراف الحديث طويلاً. سألني عن رأيي في الانتفاضة البولندية، وهل توجد في بلدنا نساء مثقفات، وهل أحضرُ دروس الجامعة. ثم سألني عن تخصُّصي، فسألته السؤال نفسه. قال إنه يدرُس الفلسفة. طرح عليّ عدة أسئلة عن روسيا، وقال إنه قد يزورها يوماً، وأنه يعرف شاباً يجيدُ اللغة الروسية، وأراد أن أطلعه على معاني بعض الكلمات التي حاول أن يتهجّاها، لكني قلت بصراحتي المعهودة إني لم أفهم نطقه لتلك الكلمات، ويحسن به أن يطلعني على الورقة التي كتبها عليها. اضطرب قليلاً، لكنه أطلعني عليها رغم ذلك. كان مكتوباً على

الورقة: «روحي، حُلوتي، عذبتي». أجبته أنها ترّهات، فقال: «سأمزق الورقة إذاً». يا له من شاب لطيف، بل في غاية اللطف! لقد احتاجَ إلى كثير من الجرأة كي يقدم على مجرد محادثتي.

عدتُ إلى التفكير في سالفادور خلال الأيام القليلة الماضية. كنت هادئة، أعمل بجدّ، لكنني أتذكر أحياناً الإهانة التي تعرضت لها، فيغمرني السخط. في مثل هذه اللحظات، أفكر فيه دون غيره، وأعجز عن الاقتناع بأنه تخلّى عني. لا أدري إلى الآن كيف أعيدُ إليه الصاع صاعَين. كل ما أعرفه أني لا بدَّ أن أقدم على ذلك في يوم من الأيام، وإلا هلكت من الحزن.

أعرف أنه طالما سيبقى ذلك المنزل حيث أهنتُ موجوداً، وذلك الشارع، وطالما سيحظى ذلك الرجل باحترام الآخرين، وبالحب، وبالسعادة، فلن يهنأ لي بال. إني أقول في قرارة نفسي إنه لا يمكن ألّا يعاقب على صنيعه. لقد سبق لي أن أهنت من أحببت، وأهانني من أحببت، لكني تحملت كل ذلك... وإن كان الشعور بالإهانة قد ظلَّ ماثلاً أمامي لا يمَّحي. وها هو ذلك الشعور يطالِبُ اليوم، من خلال كل ما أرى وأسمع من كلام جارح، بالانتقام منه، لأن انتقامي منه سيكون بمثابة الانتقام من الجميع. حين أفكر في الأمر جلياً، أقتنع بأن علينا أن نتصرف بحسب قناعتنا، وأن نقدم على ما هو ضروري الإقدام عليه. لا علم لي بما سأقدم عليه. كل ما أعرفه أني سأقدم على أمر ما. لا أريد أن أقتله، لأن ذلك قليل عليه. سأسقيه سمّاً بطيء المفعول. سأحرمه من كل ما يسعد به. سأهينه.

باريس، 13 فبراير.

اشتريت حذاء اليوم. دخلت إلى المتجر نفسه مرتين. عاملني صاحب المتجر وزوجته بلطف كبير، ودعواني إلى أن أجرّب عدة أحذية. ولكم كان خجلي شديداً حين لم أشترِ إلّا حذاء واحداً بثلاثة فرنكات! إنها قليلة على الخدمة التي قدّماها لي. لكنني اكتشفت في النهاية أنهما خدعاني، وسرقا مني نصف فرنك، فصعقت.

باريس، الأحد 14 فبراير.

زرت الأب جورج أمس. كنت في غاية الإحباط في الأيام الماضية. كنت أبكي وأنا في الطريق إليه. اعتقدت أني سأجد لديه بعض العزاء. إنه عجوز حنون، يغمره الحب والحزن. وصلت إلى منزله عند الواحدة ظهراً. لم أجده، فمكثتُ طويلاً واقفة عند الباب لا أدري أين أذهب. وأخيراً، سمعتُ صوت سعال خلف أحد الأبواب، فطرقتها. «آمين» صاح صوت جهوري. ففتحت الباب وأنا أقول:

- عذراً.

ودخلت. رأيت رجلاً ضخم الجثة قوي البنيان جالساً إلى مكتبه يكتب. يا للغرابة! إنه مختلف كثيراً عن الرجل الذي رأيته في الكنيسة.

قال بصوت صارم نافد الصبر بعد أن رفع رأسه:

- ماذا تريدين؟

أثبط هذا الاستقبال العدواني عزيمتي تماماً. كانت أعصابي في

غاية التوتر قبل أن ألجأ إليه، فأحسستُ بالرغبة في البكاء، وعجزت عن الكلام.

قال وهو ينظر إليّ قلقاً غاضباً:

- ألم تسمعي سؤالي؟

لم أتمالك نفسي، فانفجرتُ باكية. في تلك اللحظة، طُرِق الباب. فدخلَ أحد العمّال، وأخذ يعرض عليه شراء بعض الحاجيات، ويحدّثه عن تعليق الإعلانات. كان الأب يساومه مساومة اليهود. منحني نقاشهما الوقت كي أتدارك نفسي.

قال الأب جورج حين خرج العامل:

- يبدو أنك روسية. لا شكّ أن لديك أباً روحياً. لماذا لم تلجئي إلى م. ب؟

- أرجو أن تسامحني على زيارتي المفاجئة. فقد أقدمت عليها لقلّة تجربتي، ولأني سمعت عنك.

قال الأب برأفة:

- لا بأس، لا بأس. ولكني أعتقد أنه كان من الأنسب أن تلجئي إلى أبيك الروحي.

مكثتُ صامتة مطأطئة الرأس. فسألني بطيبة:

- هل يمكنني أن أساعدك؟

مكثتُ لحظات طويلة عاجزة عن الكلام.

قال متعجّلاً:

- هل تبحثين عن عمل؟ هل يعوزك المال؟ أليست لديك أسرة؟ أليس لديك أصدقاء؟

ثم أردف صارماً:

- أم أنك أذنبت في حقّ قانون الأخلاق؟

خجلتُ، ورفعتُ رأسي. ولمّا رأى أني لا أجيبه، وأني لم ألجأ إليه لأي سبب من تلك الأسباب، لم يدرك ما دفعني إلى أن ألجأ إليه. ولكنه حزر نسبياً في النهاية، فشرعَ يحدثني عن الرب وقد أغلق عينَيه. بدا كما لو أنه يستظهر درساً يحفظه عن ظهر قلب.

وخلصَ في النهاية إلى أن كل الأفكار السيّئة التي تراودني ليست إلا ترّهات. قال إذا كانت الجرائم وشتّى أنواع المعاناة تسودُ العالم، فهو لا يخلو من القوانين أيضاً، وأنه لا يعاني في هذا العالم إلا الكسالى والسكارى، وأن الإمبراطور ألكسندر تجسيدٌ مثالي للسيادة والرجولة.

17 فبراير.

ها أنا أفكر في الانتقام من جديد. يا لها من عزّة نفس! ها أنا وحيدة الآن، وأنظر إلى العالم وكأني أنظر إليه من خارجه. كلما أطيلُ النظر إليه، أحسُّ بالغثيان. ماذا عساهم يفعلون؟ لماذا كل هذا الحماس؟ عمَّ يكتبون؟ بين يدَي الآن كتيّب صدرت طبعته السادسة خلال ستة أشهر فقط. وماذا نقرأ فيه؟ السيد لوبولو مفتون لأن الخبّاز في أميركا يستطيع أن يربح عدة آلاف من الدولارات في السنة الواحدة، ولأنهم يستطيعون أن يزوِّجوا الفتيات هناك دون مهر، ولأن مراهقاً في السادسة عشر من عمره يستطيع أن يعيش معتمداً على قوة ساعدَيه. يا له من أمل، ويا له من مثل أعلى! كم أتمنى أن أمزقهم إرباً إرباً.

الأربعاء، 3 مارس.

حضرتُ درساً من دروس فيلاريه شارل[1]، فأدهشني تهريجه. حين صعد إلى المنصة، أسدلَ جفنَيه، ثم أخذ يتكلم وهو يحرّكُ يديه، [غير مقروء]. كان يلجأ أحياناً إلى حركات بهلوانية، وإلى الاضطجاع فوق المكتب، كي يضحك الحاضرين الذين يبدو أن حركاته تروقهم. وإليكم كيف يلقي دروسه:

«إن درسي لن يشبه أي درس آخر، إذ لم يسبق لأي مفكّر في أوروبا أن تبنّى منهجي في البحث... سأحدثكم عن عصر لويس الرابع عشر. لا شكّ أنكم تعتقدون أنه كان عصراً مزدهراً. إنه لم يكن كذلك على الإطلاق، يكفي أن تقرؤوا جيّداً ما كتب عنه، نعم، يجب أن تقرؤوا ما ينشر عنه. لقد نُشرَ مؤخّراً كتاب لباحث ألماني أنا متأكد أنكم لم تقرؤوه، بل متأكد أن لا أحد منكم يعرف اسم ذلك الباحث. كان الاعتقاد السائد لدى الجميع أن لويس الرابع عشر يرعى العلوم، والفنّ، والأدب. طيب ربما كان يرعى الفنّ حقاً لأنه تجسيد للجمال، وللشمس، لكن هل تعرفون رأيه في الفنّ التشكيلي الفلمنكي مثلاً؟ لقد قال عن ذلك الفن إنه «تافه، لأن الفنانين التشكيليين الهولنديين لا يرسمون إلا الفلاحين وفي أفواههم الغليون». أما الهولنديون والإنجليز فكانوا أناساً رزينين، لا يقبلون على الرسم كثيراً، لأنهم كانوا منشغلين بأمور أخرى. وحين يتسنى

(1) تقصد فيلاريه شال (1799-1873) على الأرجح، فقد كان ناقداً شهيراً آنذاك.

لهم أن يرسموا، لا يسعون إلى إبراز الجمال بل الحقيقة. لا يهمهم جمال الشمس، لأن الشمس لا تشرق في بلدهم إلا نادراً. لذلك نجد شعوب أوروبا الجنوبية لا تحب ذلك، بل إنها تكرهه. أما لويس الرابع عشر، فكان لديه الكثير من الجلادين مختلفي الدرجات والمراتب. وإليكم الآن كيف كان ينظر إلى الإبداعات الأدبية: كان يوجّه أمره إلى كبير الجلادين قائلاً: «الأدب ممنوع، لاحقوه حيثما تجدوه، احرقوه». بل إنه أمر بإحراق أحد الكتّاب... هل تعتقدون أنه أمرَ بحرقه لأنه كتبَ كلاماً ضدّ فخامته؟ لا، بل لأنه كتب كلاماً ضدّ السيدة دي مانتونون[1]. آه، كم كانت تلك الفترة صعبة، بل في غاية الصعوبة، وإني لسعيد أني لم أعش في تلك الفترة وإلا فإن طبعي الصعب كان سيؤدي إلى هلاكي. كيف نكتب الروايات في وقتنا الحاضر؟ خذوا رواية فرنسية ما مثلاً. ستبدو لكم الكلمات الأولى مسلية، والتي تليها مضجرة قليلاً، والتي بعدها ستجذبكم، والتي تليها ستدفعكم إلى الرغبة في معرفة ما وقع لهذه الفتاة أو تلك من أبطال الرواية. أما الإنجليز فلا يكتبون على طريقة الفرنسيين. إن رواياتهم لعامرة بالخطب والمواعظ. وإن بعض القرّاء ليشعرون بالنوم وهم يقرؤونها، بينما يستطيع بعضهم الآخر أن يواصل القراءة إلى النهاية رغم ذلك».

ثم انتقل فجأة إلى الكلام عن الكراهية بين الشعبَين الفرنسي والإنجليزي:

«لقد نشأتُ في إنجلترا، لكن لا ينبغي أن يجنح بكم فكركم إلى

---

(1) مربية أطفال لويس الرابع عشر التي أصبحت زوجته بعد موت الملكة.

أني مهووس بالإنجليز. إنني فرنسي قحّ. دخلت ذات يوم إلى الكنيسة، وكنت حينئذ طفلاً صغيراً هادئاً، فمكثتُ جالساً في أحد الأركان وهم ينظرون إليّ، لأنهم خمنوا إني طفل فرنسي من خلال طريقة ربط ربطة عنقي التي تختلف عن طريقة الإنجليز. لم يتوقفوا عن النظر إليّ. لا شكّ أنهم كانوا يقولون في قرارة أنفسهم: «لا شك أنه وحشي الطباع». نعم، ذاك ما كانوا يرددونه بينهم وبين أنفسهم (وإني لأؤكد ذلك حتى إن كان من بين الحضور أناس إنجليز. فأنا لا أعبأ بهم). لكن يبدو أن الإنجليز قد أدركوا أخيراً أن موليير أيضاً ليس غبياً، وأننا نقرأ شكسبير نحن أيضاً».

في البداية، ضحكتُ كثيراً. لكن سرعان ما انتبهت إلى أن الآخرين يضحكون أيضاً، لكن ضحكهم كان مختلفاً، ضحكاً يعبِّر عن التشجيع، فشعرت بالسخط.

لقد تعبت من أن أثير انتباه الجميع. إنهم يركزون أنظارهم عليّ لا لأن النساء لا يحضرن المحاضرات أو لا يترددن على المكتبة، بالعكس. ولكن لأن مظهرهنّ يختلف عن مظهري. إنهنّ يلبسن ثياباً موشاة بالأزهار، ومنهنّ من يتزين زينة كريهة، ومنهنّ من يرتدين المناديل، وهنّ على العموم مصحوبات بأمهاتهنّ. ومن بينهنّ نساء جادات أيضاً، بل لقد صادفت من بينهنّ امرأة عدمية تماماً.

في الوقت الذي ألزمُ فيه حدودي، تراها هي تشجّع الأستاذ على كلامه، وتضرب الأرض برجلَيها وتصيح: «أحسنت». إنها لا تهتم بمظهرها، وتتردد على الجامعة وحيدة. ومع ذلك، لا يعيرونها أي انتباه لأنها ليست امرأة شابة. كل الناس يرون أنه من الطبيعي أن تتفرّغ المرأة التي أفنت شبابها في انتظار الزوج لدراسة العلوم لأنه

ليس لديها ما يشغلها عن ذلك. أما أنا فلا يتركونني وشأني، فيزعجونني باستمرار أثناء فترات الاستراحة: «هل أنت أستاذة إنجليزية؟ هل أنت غريبة عن البلد؟ هل أتيت إلى هنا كي تدرسي العلوم؟». لقد بلغت من الضيق ذرعاً من ملاحقتي أثناء فترات الاستراحة أن صرت أفتح كتاب **رسائل من فرنسا**[1]، وأتظاهر بالقراءة، لكي أتجنّبهم. ومع ذلك، فهم لا يَنُونَ يلاحقونني بأسئلتهم:

- هل هو كتاب بولندي أم يوناني هذا الذي تقرئين؟ أنت غريبة عن بلدنا، أليس كذلك؟

فأردُّ عليهم وقد احمرَّ وجهي من الغضب دون أن أرفع رأسي عن الكتاب:

- ليس بالبولندي ولا اليوناني؟

وأتعمد أن لا أطلعهم على جنسيتي حتى لا أثير انتباههم أكثر. ولكنهم يسألون رغم ذلك:

- وما هي هذه اللغة إذاً؟

الثلاثاء، 8 مارس.

لقد بلغتُ ذروة السأم. الطقسُ جميل، والمنظر من خلال نافذتي في الطابق الرابع رائع، وأنا جالسة في غرفتي كحيوان في قفص. وإن كلَّ الكلمات الإنجليزية، والإسبانية، لعاجزة أن تبدِّد

(1) من كتب هيرزن.

إحساسي بالكآبة. بل لقد لجأت إلى شرب الشاي لعلّه يبدِّد وحشتي، لكن دون فائدة. يبدو أنه ليس علاجاً ناجعاً لحالتي النفسية.

17 مارس.

ذهبت أمس لزيارة ماتشت. إنه يسكن شقة مؤثّثة بذوق رفيع، ويملك مكتبة مليئة بالكتب السويدية والإنجليزية، والفرنسية، والروسية... ويمكث طوال الوقت جالساً أمام المدفأة يكتب. يا لها من حياة حقيرة! ومع ذلك، ما أكثر الشباب الذين يعملون بجدّ من أجل أن يحصلوا على حياة كهذه الحياة! وما أكثر الطاقات والقناعات التي نضحّي بها كي تتجمع لدينا مكتبة كهذه المكتبة، ومجموعة من اللوحات الفنية كهذه اللوحات.

2 أبريل.

القلق لا يدعني في سلام. أشعرُ بضيق غريب يسري في كامل جسدي حين أنظر إلى المدينة من الشرفة. وحين أفكر أني يمكن أن أتيه وسط كل هذه الجموع أشعر بالرعب.

3 أبريل.

دخلت أحد المتاجر أمس، فلم أجد أحداً. وبعد بضع دقائق أقبل صاحب المتجر محمرّ الوجه [غير مقروء]. كان يرتدي بذلة عمل وسخة، ويطل النّشُوق من أحد منخريه، وعلى أنفه كدمة.

قال:

- لقد تأخرتُ عليك يا آنسة. أتمنى أن تكوني حرست المتجر جيّداً في غيابي؟

اشتريت منه ورقاً، فأهداني ورقتَين من **دون مقابل**.

قلت:

- أنت كريم جداً.

أجاب:

- مهما عظم كرمنا فهو أقلّ ممّا تستحقه آنسة مثلك.

دار الحديث بيننا بجدية كبيرة.

مؤخّراً، كنت مارة من شارع ميدسان، فصادفت في نهاية شارع سيفاستوبول جماعة من الشبان برفقة فتاة شابة جميلة حاسرة الرأس، سرّحت شعرها تسريحة منفوشة متقنة. توجّهت الفتاة بالكلام إلى أحد الشبان بنبرة لا تخلو من الدلال وهي تضع يدَيها على كتفَيه قائلة: «**أخبرني**». فانطبعت هذه الصورة في مخيلتي بقوة، ولست أدري لماذا شعرت بعد ذلك بأن عذابي قد خفَّ، وبقليل من الراحة. ما أفظع النساء ممن هنّ على شاكلة تلك المرأة. لقد سبق لي أن صادفت نساء حركاتهنّ مفاجئة، وعباراتهنّ وقحة، ولكن أستطيع تحملهنّ رغم ذلك، على عكس تلك المرأة.

17 أبريل.

تعرّفت منذ أيام قليلة إلى شخصيتَين: يفغينيا تُور وماركوفيتش فوفتشوك. كانت يفغينيا تور قد سمعت كورام تتحدث عني، فطلبت منها أن تدعوني لزيارتها في منزلها.

سحرتني منذ أول لقاء بحيويتها وحماسها. إنها امرأة متواضعة حقاً رغم ذكائها وسعة ثقافتها. لم أشعر برفقتها بما أشعر به عادة من انزعاج وتوتر في اللقاء الأول، حتى إن تعلّقَ الأمر بلقاء مع شخصيات مثقفة إنسانية. كنت أحدّثها كما لو أني أحدّث أمي. آه، كم بكينا وتعانقنا حين حكت لي مغامراتها في بولندا. دعتني منذ أول لقاء إلى أن أسكن في بيتها (حيث تسكن مع ابنها)، ووعدتني أن تدرّسني اللغتَين الفرنسية والإنجليزية، وبأن لا تحدثني إلّا باللغة الفرنسية. ثم دعتني إلى أن نمضي الصيف معاً في ضيعة أحد أصدقائها وهي تتأسّف أنها لم تتعرّف إلي منذ مدة طويلة. وبعد غد، أتت لزيارتي رفقة بعض الأصدقاء، فذهبنا نحن الخمسة إلى المقبرة. أثناء الطريق، حاول لوغينين[1] الذي كان جالساً قبالتي (والذي قدّمته الكونتيسة إليّ وهي تلحُّ عليه أن يمرَّ عليّ كلما خرج في نزهة) أن يسليني، لكني كنت منشغلة بالاستماع إلى الكونتيسة التي كانت تتجاذب أطراف الحديث مع أحد الرجال. إنها لا تتنازل عن رأيها أبداً. دهشتُ من حيويتها في الدفاع عن رأيها.

قالت وهي تتحدث عن أحد الشباب:

«إذا كان قد تنازل وتصالح (مع النظام القيصري طبعاً) ولما يتجاوز العشرين من عمره، بينما لا أزال قادرة، حتى بعد أن بلغت الأربعين، على الكراهية (كراهية النظام)، فكيف سيصبح بعد بلوغ الثلاثين؟ لا شكّ أنه سيصبح جاسوساً حينذاك».

---

(1) فلاديمير لوغينين (1834-1911) ثائر شهير من أصدقاء هيرزن، كان يتردد في باريس على حلقات الثوار المهاجرين.

رد الرجل الذي كان يحادثها بأن للأفكار المحافِظة حقّ في الوجود هي الأخرى.

فأجابته بحماس:

«هذا بالضبط ما اعترضتُ عليه منذ مدة طويلة. لا شكّ أن للأفكار المحافظة حقّ في الوجود، لكن ليس كما هي في بلدنا. ففي إنجلترا وفرنسا، مثلاً، هناك أحزاب محافظة، لكن ليس لديهما أي حزب محافظ يدافع عن العقوبات الجسدية كما هو الحال في بلدنا. بالعكس، إنها أحزاب ليبرالية في الغالب، وأكثر إنسانية من الأحزاب الثورية».

كانت الكونتيسة قد تخلّت عن صداقة تورغينيف لأنه بعث إلى القيصر رسالة يعلنُ فيها أنه قطع كل علاقاته مع أصدقاء أيام شبابه احتراماً للقيصر[1].

أما ماركوفيتش، فزرتُها دون توصية من أحد. استقبلَتني بحفاوة، وقالت إنها سمعت عني وكانت تودُّ زيارتي، لكنها لم تكن تعرف عنواني. سرعان ما سحرتني هي الأخرى. اقترحت عليّ الشاي، فلم أرفض لأنني كنت عطشى. لكني سرعان ما أدركت أنه كان عليّ أن أرفض، لأن لطفها لم يكن مختلفاً عن لطف البارونات

---

(1) يتعلق الأمر برسالة بعث بها تورغينيف إلى ألكسندر الثاني، وذلك لأن البوليس السري الروسي طلب منه في بداية سنة 1863 أن يعود إلى روسيا. وقد كانت من بين الاتهامات الموجّهة إليه صداقته مع هيرزن. أجاب تورغينيف في رسالة إلى القيصر بجرد لتاريخ علاقته مع هيرزن، وأبرزَ أنه ابتعد عن هذا الأخير لعدة أسباب من ضمنها التزاماته السياسية المعارضة للنظام القائم.

الروسيات المستعدّات لاستضافة كل من هبَّ ودبَّ، ومنحه الشراب والطعام. بعد أن تجاذبنا أطراف الحديث طلبت مني (الرب وحده يعلم الدافع) أن أنتظر ريثما تنتهي من كتابة إحدى رسائلها. ثم حملَت الرسالة إلى مقرّ البريد، وطلبت مني من جديد أن أنتظرها، لكنني خرجت معها لكي أعود إلى بيتي. كان الجو جميلاً، فرافقتني السيدة ماركوفيتش إلى محطة العربات الصغيرة... أثناء الطريق، تحدثنا عن أشياء كثيرة: تحدثنا عن هيرزن، وعن كتاباته، وعمّا أنا بصدد كتابته، وعمّا سبق أن كتبت. وكانت تركّز بشكل خاصّ على التعويضات المالية التي تقدمها المجلات لمراسليها. ثم أخذت تسألنني هل اشتريت فساتين الصيف، وعن ثمنها، وعن شكلها.

لاحظت أنها امرأة باردة، حذرة، وتحاول سبر أغوار الآخرين. لا شكّ أنها تحكم العقل في كل تصرُّفاتها، وتتحكم في أعصابها، ولا تتسرّع أبداً، ولا تفتتن بالآخرين. قالت الكونتيسة إنها امرأة مهذبة راقية، لكنني لم أجدها كما وصفتها، على الأقل معي أنا. لم أستطع أن أمتنع عن المقارنة بين هاتين المرأتين. كنت أعتقد أني لن أبكي في حضرة ماركوفيتش، لكني بكيت. لمّا كنت ذاهبة لزيارتها بعد غد في الوقت المحدد، وذلك بعد أن دعتني لزيارتها ووعدتني أن تعطيني كُتباً لم يسبق لي أن قرأتها، صادفت في الطريق، في أحد الأزقة الضيّقة، امرأة تبكي. كانت لا تزال شابة، وترتدي لباساً رثاً وإن كان نظيفاً. اقتربَت مني خجلة. ظننت أنها تريد أن أدلّها على زقاق ما تبحث عنه، لكنها قالت: «اعطني فلسين من فضلك، فأنا جائعة». تأثرت لمنظرها النبيل المذعن بحزن، فأعطيتها فرنكاً واحداً، وهو كل ما تبقّى معي. فشكرتني وذهبت. واصلتُ طريقي، لكني تأثرت كثيراً بلقاء تلك

المرأة، فشرعت أتساءل كيف أستطيع أن أساعدها. فما كان مني إلا أن عدت أدراجي على الفور، ولحقت بها. قلت لها: «اسمعي، هل أستطيع أن أساعدك؟ لا شكّ أنك كنت مريضة، أو أصابتك مصيبة ما. إذا كنت من دون عمل، فقد أستطيع أن أعثرَ لك على عمل. زوريني في بيتي كي نبحث الأمر معاً». وأردت أن أكتب لها العنوان، لكن لم يكن معي قلم. قالت إنها لن تستطيع تذكر العنوان، ودعتني أن ندخل أحد المتاجر فنسألهم قلماً. كتبت العنوان، وسألت التاجر هل أنا مدينة له بشيء مقابل استعمال القلم. لا شيء، قال. فشكرته ومضيت، فقد كنت مستعجلة. قالت المرأة بنبرة صادقة ممتنّة لحظة الوداع: «لن أنساك أبداً». لم تكن ماركوفيتش في البيت.

اقترحت عليّ والدة الكونتيسة أن أنتظر عودتها، وقالت إن ابنتها ذهبت لزيارة تورغينيف، وحاولت أن تقنعني بأن هذا الأخير زارَ ابنتها أمس وانتظر عودتها ساعة كاملة، ولكن انتهى به الأمر أن ذهب إلى حال سبيله دون أن يتمكن من لقائها. وقالت أيضاً أن زوجة الرسّام ياكوبي[1] ستأتي لزيارة ابنتها، وبأنها امرأة شابة جميلة، وطيبة القلب حسب رأيها. وبالفعل، سرعان ما أتت امرأة جميلة. فحزرتُ أنها زوجة ياكوبي. أخذنا نتجاذب أطراف الحديث. تظاهرَت بأنها امرأة ليبرالية متحرِّرة، وحاولت أن تقنعني بذلك وهي تتشدق بجُمل لا تحسن اختيارها على الإطلاق. وأخيراً، أتت ماركوفيتش، ودعتنا إلى التعارف، لكن دون أن تذكر اسمينا، فشددنا على يد بعضنا بعضاً في صمت. قالت ماركوفيتش إنها لم

(1) فاليري ياكوبي (1834-1902) رسام شهير، عاش في باريس مدة طويلة.

يكن لديها ما يكفي من الوقت كي تبحث لي عن الكُتب التي وعدتني بها، وأخذت تتحدث عن المال من جديد. ثم أطلعتها زوجة ياكوبي على الصور التي رسمها لها زوجها، فلم ترضَ عنها بتاتاً. أما أنا، فلم أرَ في تلك الصور عيباً إلا في طريقة الجلوس، وفي ذلك البرنس الذي لا يناسب هيئتها الدميمة.

تحدثنا عن سالياس، وأخبرتهما أنها زارتني في بيتي. لا شكّ أنهما اعتقدتا أني تعمدت أن أخبرهما بذلك.

قالت زوجة ياكوبي:

- إذا زرت الكونتيسة فاسأليها أن تعيد إليّ كُتبي من فضلك.

سألتها:

- تقصدين الكونتيسة سالياس؟

لم تعر جوابي أي انتباه، وشرعت تثرثر إلى أن أدركت الكونتيسة التي تقصد.

قلت:

- سوف أخبرها بذلك إذا شئت، لكن دعيني أسألك عن اسمك أولاً.

تدخلت الكونتيسة قائلة:

- آه كم أنا مهملة، فقد قدمتكما دون أن أذكر اسميكما.

قالت المرأة الجميلة:

- اسمي ياكوبي.

ولما رأتني لا أعبِّر عن دهشتي حين سمعت اسم زوجها، اعتقدت من دون شكّ أني جاهلة، لأني أجهل اسمه. وأخذت ترمقني بنظرات محملة بالرثاء وسألتني أن أسجّل الاسم. لكنني قلت إني

سوف أتذكره. ومع ذلك، ألحَّت أن أسجّله، فانتهى بي الأمر أن قلت وأنا عاجزة عن التحكم في ابتسامتي إني أعرف اسم زوجها جيّداً (لن أحدث الكونتيسة عن الكُتب طبعاً، وسوف أقول للمرأة الجميلة أني نسيت). شعرت بحزن شديد وأنا أنظر إلى حبورهما الزائف، وأستمع إلى كلامهما التافه الخامل. دعتني الكونتيسة إلى أن أشرب القهوة. وبما أني كنت قد تناولت وجبة الغداء قبل مجيئي، رفضت وعدت إلى البيت. لا شكّ أن ربة البيت لاحظَت مسحة الحزن على ملامحي، فسألتني حين رافقتني إلى الباب عن السبب. فشعرت بحزن أعمق، وبأعصابي تتوتّر أكثر، فلم أستطع التحكم في دموعي.

سألتني الكونتيسة وهي تمسكُ يدي بحنان وعطف:

- ماذا بك؟

ثم قادتني إلى غرفة نومها، فتبعتها دون رغبة مني، وانهمرت دموعي. فقد كان شعوري بالعجز والخجل يعذبني. بررت ذلك كله بلقائي بتلك المرأة المسكينة في الشارع، وعدت إلى المنزل مسرعة. كانت قد قالت لي إني أستطيع أن ألجأ إليها إذا كنت أعاني من مشاكل ما.

قلت وأنا أبتسم ابتسامة ساخرة حزينة:

- وما هي يا ترى تلك المشاكل التي يمكن أن نصادفها في دولة متحضِّرة؟

أجابت:

- ألا تعانين من مشاكل مع مالك المنزل مثلاً؟

ثم قالت إنها ستزورني غداً، وكررت ذلك عدة مرات. وجاءت بالفعل في الموعد المحدد. رأيتها من النافذة وهي تدخلُ مدخل

العمارة، فنزلت إلى الفناء كي أستقبلها. استقبلتها بكل ما أستطيع من لطف، لكن دون تبجيل. تجاذبنا أطراف الحديث حوالي ساعة كاملة، ثم نزلت معها لمرافقتها إلى باب العمارة حيث تحدّثنا وقتاً طويلاً. وذكّرتني بالوعد الذي كنت وعدتها بأن أطلعها على كتاباتي. وبما أن كتاباتي لم تكن معي في البيت، طلبت مني أن أعدها بأن أزورها في بيتها بعد أسبوع، وأن أقرأ عليها قصتي القصيرة[1].

حين كنا نتجول في المقبرة، وعدني لوغينين أن يمدّني بلائحة الكُتب التاريخية التي ستفيدني كثيراً. واضح أنه كان يرغب في تثقيفي. كان قد حدثني عن المذهب المثالي والمذهب المادي بكثير من السذاجة، لأنني كنت قد قلت إني أجد صعوبة في تحديد معناهما.

سألتني ماركوفيتش عن اسمي الشخصي. فلما أخبرتها، قالت:

- كنت أعتقد إن اسمك ناديجدا سوسلوفا.

- لدي أخت اسمها ناديجدا...

الثلاثاء، 3 مايو 1864.

في طريق العودة من بروكسيل، نمتُ حين أوشكنا على الوصول إلى باريس، فأيقظني المسافر الوحيد الذي كان معي في المقصورة حين توقف القطار. استيقظت مسرعة، وشرعت أجمع حاجياتي.

---

(1) لا شكّ أنها تقصد أول قصة قصيرة كتبتها بعنوان «فيما مضى»، ونشرتها سنة 1861 في مجلة الزمن التي كان يشرف عليها الأخوان دوستويفسكي.

كان جميع الركّاب قد غادروا القطار. اقتربَ المراقب من المقصورة التي كنت فيها، وفتح الباب. قال: «آه، أما زلتِ هنا؟». وحين رآني متعجّلة، أردف: «لا داعي للعجلة، فما زال هناك متّسع من الوقت». لكنني أجبت وأنا أقترب من الباب: «أنا جاهزة الآن». فمدَّ إليّ يدَهُ، فقبلت مساعدته، ونزلت إلى الرصيف. شرع يقول: «الطقس بارد...»، لكنني كنت قد أسرعت بالتوجُّه إلى المحطة.

السبت، 8 مايو.

زرت ماركوفيتش أمس. قرأَتْ قصتي القصيرة (قصتي الأولى)، فأعجبَتها كثيراً. قالت إن هذه القصة القصيرة أحسن من كتابات سالياس[1]. قرأت عليها قصة أخرى غير منشورة، فأعجبتها أيضاً، باستثناء النهاية. حين كنت أقرأ، كانت ماركوفيتش تكرِّر: «جيّد! ممتاز!». لكنها قالت بعد أن انتهيت من القراءة وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث: «حين ننظر إلى الناس يجب أن نفتح عيوننا جيّداً». أجبتها أني لا أستطيع ذلك، وأني أرى في مثل هذا السلوك نوعاً من الوقاحة.

فعلاً، ما هو ذلك النوع من السرور الذي يمكن أن نشعر به إذا حَذِرنا كل شيء ننظر إليه؟ حتى السعادة إذا كان هذا ثمنها، فأنا لا

(1) يفغيني سالياس (1840-1908) ابن الكونتيسة سالياس، كاتب معروف آنذاك، طُردَ من الجامعة على إثر مشاركته في الاحتجاجات الطلابية. سيظهر مرة أخرى في هذه المذكرات، لكن تحت اسم فاديم. ساهمَ كثيراً في الحياة السياسية بالمهجر.

أريدها. إن سعادة كهذه السعادة لا يمكن أن تكون إلّا شكلية... حتى إن خدعني الناس، حتى إن سخروا مني، فلن أتخلّى عن حبِّ الإنسانية، ولن أفقد الأمل في الإنسانية أبداً. علاوة على ذلك، فإن الناس حتى إن آذوني، لن يؤذوني إلا قليلاً.

22 مايو.

شُفيت اليوم، وتركت سريري لأول مرة، بعد أن مرضت ومكثت طريحة الفراش خمسة عشر يوماً سهرَتْ خلالها الكونتيسة سالياس على رعايتي رعاية أم لابنتها، فأحببتها أكثر.

أثناء مرضي، زارني لوغينين وأوسوف[1] مراراً، فتجاذبنا أطراف الحديث كثيراً. دار نقاشنا في إحدى تلك الجلسات حول الجنسية الروسية، فتبيّن لي أنهما لا يعيرانها أي احترام يذكر. قال أوسوف في تلك الجلسة نفسها إنه يحب تقاليد الشعوب البدائية حيث يستطيع الأبناء، حين يصلون مرحلة البلوغ، أن يقتلوا آباءهم ويأكلوهم. وأردف أنه يحسن بنا أن نتبنّى العادة الأولى المتمثلة في قتل الآباء، ونتخلى عن العادة الثانية.

زارتني الكونتيسة سالياس ولوغينين وأوسوف اليوم في منزلي، فتحدثت الكونتيسة عن تربية ابن أخيها، وكيف أنها ألحقته بمدرسة سويسرية.

---

(1) قد يكون المقصود بيوتر أوسوف (1832-1897) وهو مهندس من أنصار النظام الدستوري المعتدل.

وقالت من ضمن ما قالته أن التربية على الطريقة السويسرية عيبها أنها تجعل من الأطفال مواطنين عالميين. فردَّ عليها لوغينين بأنه أمر طيب أن تصبح مواطناً عالمياً، وأنه يتساوى في عرفه أن يسعى الإنسان إلى مصلحة المواطن الفرنسي أو الروسي، وأنه سيكون سعيداً أن يخدم البلد الفرنسي أو البريطاني، وأنه إنما يمكث في روسيا لأنه على علم جيّد بأخلاق بلده وباللغة الروسية، وإن كان لا يشترك مع الروس في أي شيء، ولا مع الموجيك، ولا مع التجّار الروس، وأنه لا يعتقد معتقداتهم نفسها، ولا يحترم مبادئهم. «إن الجمعيات الباريسية تروقني أكثر من...». لكنني لم أسمع نهاية جملته، أو لعلّه تعمّد أن لا ينهيها. غضبت من كلامه كثيراً، لكني لم أقل شيئاً. الكونتيسة هي الأخرى لم تنبس. حاولَت أول الأمر أن تدافع عن نزعة حب الوطن، ولكنها لم تقدم على ذلك إلا بحُكم العادة. وحين حدثتني الكونتيسة عن الطبيب المكلّف بعلاجي، انتهزتُ الفرصة كي أعبِّر عن بعض آرائي المخالفة لآرائهم. لكن الكونتيسة سرعان ما عارضتني بحماس. تلك حقيقتهم. لا، لن أؤمن برأي هؤلاء الناس، ولن أتبعهم. لقد ولدت في أسرة فلاحة، ونشأت بين الناس البسطاء إلى سنّ الخامسة عشرة، وسأعيش حياتي كلها بين الفلاحين. لا مكان لي في المجتمع المتحضِّر. سألتحق بصفوف الفلاحين، ولي اليقين أنهم لن يهينوني بأي طريقة من الطرق.

سْبا، 15 يونيو.

أشعر بالراحة هنا. ويا للمعجزة! إني أفضّل الألمان على الفرنسيين. إن مالكة البيت امرأة هولندية، تغدق عليّ مما لديها من زُبدات ومن جعة. نتناول خمس وجبات في اليوم. أما مالك المنزل فرجل عبوس كئيب، كأنه مجرم. ولكنه طيب رغم ذلك. ويسكن معنا في المنزل نفسه فرنسيان. أخبرتني أنهما ألحّا على أن تدوِّن شروطهما في عقد تأجير مكتوب (لمدة ستة أسابيع)، وأنها دهشت من حذرهما. وممّا نصّ عليه العقد مثلاً أن يكون المنزل خالياً من البراغيث. يا له من سلوك فرنسي منفر! ينهض بمهمّة الطبخ في المنزل طبّاخة ألمانية ساذجة مضحِكة. حين يكفهر الطقس، تبدو في غاية القلق لأنها تفكر في قريتهم بمكلنبورغ، وكيف أن **الزرع** الذي زرعه والدها سيموت. بل كانت تفكّر في تلك اللحظات أن تغادر المنزل خلسة. لا أحد يستطيع أن يدرك كيف يمكن لحضورها أن ينقذ **الزرع** من الهلاك. وها هي الآن، تأتي إليّ من حين لآخر كي تسألني: «أتعتقدين يا آنسة أن المطر سيهطل غداً؟» فأجيبها: «ربما»، ولكنني سرعان ما أتذكر **الزرع** في قريتهم، فأردف على الفور «ولكن في سْبا فقط».

سْبا، 16 يوليو 1864. (رسالة)

«عزيزتي الكونتيسة، توصلت برسالتك منذ أيام قليلة، فقرأتها بسرور خاص. إنك إنسانة طيّبة...».

سْبا، 21 يوليو.

أهتمُّ هذه الأيام بقضايا أختي على الخصوص، أي بدراستها. وإن إقامتي بباريس لمتعلقة بذلك. لقد نذرت نفسي بالكامل تقريباً لكل قضاياها المتعلقة بدراستها وبكل منغصاتها. ولولا ذلك، لعدت إلى الإيمان بأن الحياة لا تستحق أن نعيشها. هكذا هو الإنسان، فتارة لا يؤمن بأن هناك ما يدعو إلى التشبُّث بالحياة، وتارة أخرى يعيش على أمل أن يلبّي إحدى نزواته.

فرساي، 30 أغسطس.

تناقشت اليوم مع يفغينيا تور بخصوص سويفت[1]. قالت إنه شرير. فأجبتها: «ذلك لأنه كان ساخطاً». فتساءلَت:

- لماذا وعلى ماذا؟ هل عانى في حياته؟ ألم يكن غنياً محترماً؟

قلت:

- إنه لم يكن سعيداً في حياته الخاصة.

قالت:

- هل كان ساخطاً إذاً لأن الإنسان ليس طيّباً في جوهره؟ ما مصدر كراهيته للإنسان؟ ألا يدل ذلك على غياب الطموحات السامية لديه؟ وعلى عدم إيمانه بأن للإنسانية هدفاً أسمى؟ لقد عرفتُ رجلاً

---

(1) جوناثان سويفت (1667-1745) كاتب إنجليزي، أشهر كتبه **رحلات غلفر**.

مثقّفاً متحضّراً فيما مضى، رجلاً سجن في سيبيريا، وجلد، ورغم ذلك لم يتخلَّ عن إيمانه بالإنسان، وعن حبّه للإنسانية. إنه إنسان ذو روح طاهرة. قلت في نفسي: «إنه رجل زاهد من دون شكّ، أما سويفت، فقد دفعه طموحه الجموح إلى الطمع في أن يصبح مُطراناً، ولعلّ ذلك ما حدا به أن يغيّر ولاءه غير ما مرة».

قلت:

- لعلّه بذلك كان يسعى إلى أن يصبح من ذوي النفوذ.

- أية نفوذ؟ إنك لا تقولين هذا الكلام إلا كي تعارضيني.

لم أردّ عليها. قد تكون على صواب على أية حال، لقد كان الرجل طموحاً بطريقة غبية، ولكن هل يمكن أن نلومه وندينه على ذلك؟ تلك هي الحقيقة، لكن كيف يمكن أن ندينه ونحن لا نملك أدلة؟ إنني أحترم كثيراً كل من يعانون رغم الترف ورغم سعادتهم في حياتهم الخاصة. أحترمهم وأفهم معاناتهم.

لقد سبق لي أن رأيتها تنتقدُ بحضرتي فتاة لأنها لم تتزوج رجلاً طيباً لا تحبه، رجلاً لا شكّ أنها كانت ستعيش سعيدة إلى جانبه. وكنت قد دافعت عن تلك الفتاة قائلة إنه لا ينبغي أن ننقصَ من متطلّباتها ورغباتها.

قالت:

- وا أسفاه عليها! ستعيش حياتها عانساً إلى جانب أمها الحيزبون.

قلت:

- إنني أحترم هذه الفتاة الشابة، لا سيما أنها رفضت أن تساوم رغم ظروفها السيّئة.

عابت عليّ أني كئيبة، ودعتني إلى أن أنتبه إلى وضعيتي الحسنة بالمقارنة مع وضع كثير من الفتيات الشابات. وهل لحزني علاقة بوضعي؟

ثم هاجمت الكاتب بوميالوفسكي، بسبب جملته الشهيرة التي أحبُّها كثيراً[1]، وقالت إن الإنسان خلق لكي ينهض بالواجب المناط به، لا من أجل أن يتمتّع بالحياة. الواجب! بماذا يدين الإنسان النزيه للمجتمع، وماذا يمكن أن يقدّم له؟

باريس، 15 سبتمبر.

زارني اليوم صديقي الطبيب، فأخبرني أنه قرأ **في المساء**[2]، وأعجب بحياة البطلة إنساروف المليئة بالسعادة، وعلّقَ متسائلاً: «أيعقل أن يوجد في الواقع فتيات شابات على شاكلة إنساروف؟».

أجبته أني مندهشة أن يهتمَّ طبيب بالإبداعات الفنية. فأخذ يبرهن أن الإبداعات الفنية لا علم الكيمياء هي ما يهذّب الإنسان. «لقد انتهيت لتوي من قراءة هذا الكتاب فاستمتعت بلحظات يعجز علم الكيمياء عن أن يمنحني مثلها».

---

(1) نيكولاي بوميالوفسكي (1835-1863). أما جملته الشهيرة فوردت على لسان بطله في رواية **مولوتوف**: «أهو ممنوع أن نتمتع بالسعادة؟ إن ملايين البشر لا يحيون إلا لهدف واحد: التمتع بالحياة... إننا نحيا من أجل أنفسنا قبل كل شيء... لذلك سأنظّم حياتي كما أريد، ولن يجرؤ أحد على أن يحاسبني على الطريقة التي أعيش بها حياتي».

(2) رواية لتورغينيف.

- نعم، الفن خليق بأن يمنحني مثل هذه اللحظات.

- تلك اللحظات هي ما ينطبع في ذاكرتنا إلى الأبد، ويساهم في تكويننا.

ثم عرجنا بالحديث إلى بيكاروف، وستويانوف، ولوغينين. فنعتَ هذا الأخير بالمنشق. وحكى أنه لمّا التقاه أول مرة كان يحمل في يده كتاب برودون عن النظام الفيدرالي. كان قد فرغ من قراءته لتوه، فأخذ يقول إن نزعة حب الوطن والجنسية الوطنية ليست إلا تفاهات. «برافو يا لوغينين. لقد كانت قراءة كتاب لبرودون كافية بالنسبة إليه كي يصبح جاهزاً للجدال».

منذ عدت إلى باريس، وأنا ألتزم الصمت أثناء كل الوجبات الغذائية تقريباً. حول المائدة تجلس نساء مسنات قبالة أحد الطلبة وعشيقته. شرع هذا الطالب يتردد إلى **مائدة الضيوف** بعد مدة قصيرة من عودتي إلى باريس. وأيضاً رجل محترم تعوّدَ أن يجلس بيني وبين النساء المسنات. إنه رجل من الثرثرة بحيث انتهى إلى أن استدرجني للكلام، وأقحم الطالب أيضاً في النقاش الدائر بيننا. سألني الرجل المحترم الجالس عن يساري عمّا أقرأ هذه الأيام. ولمّا علم أني أقرأ كتاباً في التاريخ، نصحني أن أقرأ عدة كتب أخرى تتناول مواضيع تاريخية. واقترح عليّ الطالب من جهته أن يقرضني بعض تلك الكتب. تركت المائدة بمجرد انتهائي من الأكل كالعادة، وخرجت إلى الحديقة. عندما مررتُ بروبسكور كان عليّ أن أتوقف، لأنه توجّه إليّ بالكلام. ما أن خرجت إلى الحديقة حتى لحقَ بي الطالب وعشيقته كي يعطيني الكتب التي وعدني بها. وقد حاولَت عشيقته هي الأخرى أن تبدي اهتماماً بالكتب. كنت قد لاحظتُ، ونحن جالسون

إلى مائدة الطعام، أنها تلتفتُ إليّ بقلق، وتحاول أن تتقرب مني بتمكيني من مختلف الأطباق بواسطة رفيقها، فأبديت استحساني لصنيعها. يقطن معنا في المنزل نفسه امرأة إنجليزية تترفّع عن تناول وجبات الطعام برفقتنا على **مائدة الضيوف**، بدعوى أنها قد تضطر إلى أن تجلس إلى جانب فتاة من طبقة دنيا. يا للوقاحة! تبدو علاقة الطالب بعشيقته مؤثرة، فهي تتنازل له أثناء الجلوس إلى مائدة الطعام عن ألذّ ما يوجد في طبقها، ولا تصبّ لنفسها خمراً إلا بعد أن تصبّ له أولاً. إنها تبدو إلى حدٍّ ما كأنها خادمته، فهي تحرص على كنس غرفته وترتيبها.

21 سبتمبر.

أغضبتني صاحبة النُّزُل. مراراً طلبت منها أن تنظّفَ غرفتي وترتّبها، لكنها لا تلبي طلبي، وتكتفي بالوعود الكاذبة. بل إني لجأت إلى منح الخادمة بعض النقود كي تنفّذ ما أريد، لكن دون جدوى.

تكفّلت ماري في يوم من الأيام بتلميع حذائي. ولمّا حان وقت خروجي من البيت، بحثتُ عنها في كل مكان، وساعدني الخادم، فأخذ يناديها أن تعيد الحذاء إلى سوسلوفا. لكنها ردت بوقاحة (وبصوت قادم لا أدري من أين، من السماء ربما) بأنها مشغولة، فاضطررت في الأخير أن أسترجعَ حذائي غاضبة، واكتشفت أنها لم تلمّعه. ولمّا أخذَت الحذاء مني في الغد، أخذت تمزح وتقول إنها لن تكرِّر ما وقع أمس، فاحمرَّ وجهي من الخجل لا وجهها. وحدث

مرة أخرى أن نسيَت أن تأتيني بفطوري، ولّما كان الغد، تصرفت معي كما تصرفت يوم تلميع الحذاء، وذكرتني بسلوكها، فما كان مني إلا أن أخذت أنتحل لها الأعذار. يا للوقاحة!

قبل أيام قليلة زارني صديقي الطبيب. وحكى لي أن مربّيةً لجأت إليه وطلبت منه دواء ضدّ الشيب. فقلت إن الشيب يغزو شعري أنا أيضاً. قال: «يا لها من مصيبة لا مفرّ منها!».

تأثّرت كثيراً، فقلتُ وأنا أحاول أن أتمالك نفسي:

- لم أعانِ من أية مصيبة من قبل، ثم طفرت الدموع إلى عينَي، وأخذت عضلات وجهي ترتعش كثيراً.

قال وقد بدا متأثّراً:

- ومن ذا لا يعاني من المصائب؟

حاولتُ الكلام، لكني عجزت. وشعرت أن كلامه أقوى من أن أتحمّله.

قال:

- أنت لا تزالين شابة في مقتبل العمر وتستطيعين تحمل المصائب.

قلت بحزن وسخرية وقد أشحتُ عنه:

- وهل تعتقد أني حزينة لهذا السبب؟

أجابَ متأثّراً وهو يشيحُ عني هو الآخر:

- لا، ولكنني قلت ذلك لكي لا أظلَّ صامتاً.

24 سبتمبر.

زارني الطبيب أمس، ودرّسني الفرنسية. كنت منشرحة، لذلك بدوت مسترخية أكثر ممّا ينبغي. ولعلّي كنت أخفي بذلك ما أشعر به من توتُّر عصبي. أثار انتباهي إلى أني شاردة عن الدرس، وقال: «لا شكّ أنك تفكرين في الفتى الفالاشي[1]». صحيح أني كنت قد قلت شيئاً عن ذلك الفتى الفالاشي، لكني لم أكن أفكر فيه في تلك اللحظة. لذلك لم أردّ عليه بشيء. غضبت من نفسي، وقلت لا بدَّ أن أحاول أن أكون أكثر جدية في المرة القادمة، وأن لا يشرد ذهني عن الدرس. رأى جماعة من الشباب يتنزّهون في الحديقة، فسألني هل هم على هذه الحال دائماً. أجبته أني حين أتنزّه في الحديقة، لا أصادفُ أحداً منهم، وأني كلّما صادفت أحدهم يبتعدُ عني، لأنهم يخشونني جميعاً. وعلّقت أني أفضِّل أن يكون الأمر كذلك، إذ لا بدَّ أن يكون هناك شخص ما يخشونه.

بينما كنتُ ذاهبة إلى منزل ماركوفيتش اليوم، صادفته في الطريق. حين مررتُ أمام المستشفى، رأيت أمام الباب جماعة من الشباب يغادرون المستشفى، وخطرَ على بالي على الفور، فإذا بي أراه بالفعل. كان قد هرعَ نحو باب المستشفى حاسر الرأس، مشعّث الشعر، مغضّن الوجه، دميماً. عرفني على الفور، رغم أني كنت أرتدي قبعة بوشاح (وأرتدي ثياباً سوداء كلها باستثناء القبعة). اضطرب، فالتفت إلى رفاقه (أما أنا فلم أحرّك ساكناً). كان الموقف

---

(1) نسبة إلى فالاشيا (مولدوفا)، وهي منطقة في رومانيا تقع شمال نهر الدانوب.

مسلّياً. منذ ذلك اللقاء العابر أصبحت مضطربة طوال اليوم. لمتُ نفسي على تأثري. لكن، أيعقل أني لم أنسَه؟ شعرت باليأس. ولكن لماذا اليأس؟ هل يحسن بي أن أنساه الآن؟ ولكن هل كنت أحسن حالاً في الخريف الماضي حين لم أكن ألقاه؟ بل هل كنت أحسن حالاً حتى حين كانت علاقتنا لا تزال قائمة؟ أتذكر الآن تلك الليالي حين كنت أستيقظ من النوم فجأة وقد تذكّرت برعبٍ ما حدث بيننا أثناء النهار، فأشرع أذرعُ الغرفة جيئة وذهاباً وأنا أبكي. هل واقع الحال الآن أحسن؟ ربما كنت على أحسن حال فيما مضى، حين كنت أسمع منه كلمات الحب، أو حين قبّلني أول مرة. لكن، لماذا كنت أشعر أن حالي أحسن آنذاك؟ لأن ما وقع بيننا كان أمراً جديداً بالنسبة إليّ، وغير معهود. وهل أستطيع أن أتمنى الآن أن لا يكون ما كان بيننا قد حدث بالفعل؟ من يدري بما كان سيقع لو لم يقع ما وقع بالفعل؟ ربما كنت سأعاني من الشعور بالفراغ حينئذ، أو كنت سأقع في خطأ أشنع من الخطأ الذي وقعت فيه حين أحببته، أو كان سيحدث أمر أكثر تفاهة ممّا وقع. وكيف كان يمكن أن تكون علاقتي به خيراً ممّا كانت؟ هل كان من الأحسن أن لا تنتهي علاقتنا، وأن أصبح زوجته؟ إنه مجرد رجل مبتذل من طبقة النبلاء. فماذا يمكن أن أنتظر منه الآن؟ هل أنتظر أن يعترف بخطئه، وأن يندم، أي أن يحدو حدو فيودور ميخايلوفيتش [غير مقروء]؟ وماذا سيحدث عندئذ؟ والحال أني الآن على أحسن حال، أعيش لحظات من النجاح، وأشعر أني قوية.

يحدثونني عن فيودور ميخايلوفيتش. إلّا إني أمقته كل المقت. فقد عانيت الكثير بسببه، بينما كان يمكن أن نتجنّب المعاناة.

وها أنا أرى الآن أني عاجزة عن الحب، ولا أستطيع أن أجد الحب في لذات الحب، لأن مداعبات الرجال وملامساتهم سوف تذكرني باستمرار بتلك الإهانات والمعاناة التي تعرضت لها فيما مضى. إن أمراً جديداً قد يقع فيتمكّن من تسليتي، وإن كانت تلك التسلية محدودة.

قبل أيام قليلة، خرجتُ إلى الحديقة بعد الغداء، فتبعني الفتى الفالاشي (للمرة الأولى) وأخذ يقول إنه في غاية السرور برؤيتي. فقلت إن سروره لا يمكن أن يكون كبيراً ما دام قد تخلّف عن المجيء إلى فرساي. فتعلّلَ بأن ارتباطه بموعد الامتحان حال دون ذلك. تجاذبنا أطراف الحديث طويلاً، وحين حلَّت لحظة عودتي إلى البيت شدَّ على يدي بقوة. اكتشفت أنه شاب بسيط ساذج.

حين كنا نتجاذب أطراف الحديث في الحديقة، كان الشباب الذين نصادفهم في طريقنا يخفضون أصواتهم وهم يتحدثون إلى رفيقاتهم. أما السيّدات فكنّ يتفرّسننا بفضول. وفي الغد، تخلّفت عن النزول إلى الحديقة.

29 سبتمبر.

أنا مريضة. يعودني الفتى الفالاشي مرة كل يومين، ويواظب على ذلك. أما الطبيب فيزورني كل يوم. يبدو أن لقائي العابر بالمزارع كان السبب المباشر في مرضي.

صارحتُ الطبيب بأني تأثرت جرّاء أحد اللقاءات العابرة، فأعار كلامي انتباهاً كبيراً، وبدا حزيناً. أنا أيضاً كنت حزينة متأثرة. كان

يبدو متأثّراً كلّما حان وقت توديعي، فيشدُّ على يدي بقوة، ويسألني إن كنت في حاجة إلى خدمة ما. وحين يصل إلى الباب، يلتفت كي ينظر إليّ مرة أخرى. أخبرني ذات مرة أن السيدة ماركوفيتش سوف تزورني في يوم كذا. وكان أن زارتني فعلاً حين كان يدرّسني اللغة الفرنسية. مكثَت معنا بضع دقائق بدت خلالها غريبة الأطوار. تحدثت باقتصاد، ثم قالت إن بعض الأصدقاء ينتظرونها في البانثيون. وقالت السيدة ياكوبي إن ابنها يدرسُ اللغة الروسية، وأنها لا تهتم كثيراً بأن يتعلم معنى التعابير الروسية بدقّة. لم أتوقع أن تكون محدودة الذكاء إلى هذا الحدّ. صحيح أن النزعة الشعبية[1] أصبحت موضة اليوم، لكن علينا أن نفهم جيّداً معنى هذه النزعة. حين همَّت بالانصراف، سألت عن الطريق الذي ينبغي أن تسلكَهُ لتصلَ إلى البانثيون. فاقترح الطبيب أن يرافقها. رفضت، وقالت إنها متعوّدة على السير وحيدة في الأماكن المشبوهة. لكن الطبيب قال إنه لم يعد لديه ما يفعله برفقتي، فذهبا معاً.

تحدثت مع الطبيب كثيراً اليوم، حتى إن بدا أول الأمر حزيناً. قلت: يبدو أن السيدة ماركوفيتش غير راضية عني. ولكنه سارع إلى إقناعي بنزع هذه الفكرة من دماغي. قلت إنّ السيدة ياكوبي تحبُّ أن تتكلم كلاماً تافهاً لا معنى له، فأكّد لي ذلك. سألته إن كان أصدقاؤه من الأميركيين أم الإسبان. أجاب أنهم أميركيون جميعهم، وأخذ يصفُ طبعهم بكل ذكاء قائلاً إنهم يروقون للسيدات الفرنسيات. سألته عن السبب، فأجاب: «بسبب أجسادهم، إنهم شباب يتميزون

(1) نظرية الروائيين الشعبيين الذين يصوّرون حياة الشعب بكل واقعية.

بالأناقة، ذوو عيون كبيرة جميلة، وأسنان ناصعة البياض، وقفازات نقية، وأحذية جميلة».

مكتبة
t.me/t_pdf

قلت:

- آه كم أنت شرير!

قال إني لم أعرفه على حقيقته بعد.

ثم سألني لماذا طرحت عليه هذه الأسئلة، وهل أرغب في التعرُّف إليهم. أجبت أني لا أرغب في ذلك. سألني هل أريد أن أتعلم لغتهم؟ أجبت إني أعرف امرأة أميركية يمكن أن تدرسني لغة بلدها. ولكي لا يخيم الصمت على جلستنا، رجوته أن يستعلم عن نوع الكتب التي يقرؤها الإسبان، وعن الروايات التي يميلون إليها. وأردفت: إن أولئك الشباب ربما لا يعرفون شيئاً عن تلك الكتب. قال: «بالعكس، إنهم يعرفونها جيّداً، لأن ثقافتهم ثقافة صالونات».

عاد إلينا المرح، فنبّهته إلى ذلك. اعترفَ بذلك، وأضاف أنه كان غاضباً معكّر المزاج قبل أن يزورني. سألته عن السبب. فأجابني إن الواجبات تثقلُ كاهله، وأن الإنسان ينهض بواجباته أحياناً عن جبن، وأحياناً أخرى كي لا يسمح لنفسه بأن يجرح مشاعر الآخرين.

تحدثت مع الفتى الفالاشي عن برودون، وهيرزن الذي كنت مكبّة على قراءة كُتبه. حدثني عن بلده مولدوفا، فقال إن الطبقة الراقية هناك، كما هو الأمر في بلدنا روسيا، تقلِّدُ الموضات الباريسية، وتتواصل باللغة الفرنسية. ثم وعدني أن يأتيني بكتب راسين.

الأول من أكتوبر.

زارتني الآنسة جولييت أمس. لا أدري لماذا كانت حزينة. أثرت انتباهها إلى ذلك، فأكدت أنها فعلاً حزينة. زارني الفالاشي حين كانت لا تزال برفقتي فلم يمكث إلا قليلاً، ومع ذلك تصرّفتُ بلطف حين ودعته، ودعوته أن يعود لزيارتي. لا أدري لماذا ظننته وراء حزن جولييت. سألني عدة أسئلة عن صديقي الطبيب. فحدثته عنه، مركزة على ما يمتاز به من ثقافة واسعة. لكن الفالاشي ردّ برصانة بأن الثقافة الواسعة ليست بذات فائدة كبرى ما دمنا قادرين على أن نستفيد من القليل من الكتب.

ثم أتَت المرأة الإنجليزية، واقترحت أن نشرب الشاي معاً، وأرسلت في طلبه. يا لها من ثرثارة تجمع بين العيوب المعروفة عن الإنجليز بالإضافة إلى عيوب الإنسانية جمعاء دون أي ميزة من مزايا الإنجليز! قلتُ أمس في معرض الكلام عن النزلاء أن صاحبة النُّزُل ستمنحني أريكة إذا غادرنا أحد النزلاء. فما كان منها إلّا أن صاحت متحمّسة: «من سيغادرنا؟ ومتى سيغادرنا؟»، ثم طفقت تحكي لي برعب أن الآنسة ستوارت اتخذت عشيقاً. ولما قلت لا دخل لنا في ذلك، وأن الأمر يهم الآنسة ستوارت وحدها دون غيرها، صاحت مرعوبة: «كيف وهي تقضي الليل خارج النُّزُل!».

- وما علاقتنا بذلك! لو كانت الآنسة ستوارت أختي، لفاتحتها في الموضوع. والحال أن الآنسة ستوارت ليست طفلة، فهي لا شكّ تعي جيّداً ما تفعله، ثم إن الأمر لا يهمنا على الإطلاق، بل لا ينبغي لنا أن نتدخل في تصرفاتها بأي شكل من الأشكال. إنه سلوك غير لائق.

أعربَت المرأة الإنجليزية أنها تودُّ الرحيل إلى نُزُل آخر حيث لا ينزل إلا المسنّون، وحيث الأخلاق الحميدة سائدة، وحيث لا أثر للعشّاق والعشيقات. ولكن ما ذنب الآنسة ستوارت المسكينة في ذلك؟ أعتقدُ أنه لن تحظى بعشّاق حين تتقدم في السنّ، ككُلّ الناس. لكن المرأة الإنجليزية لا تزال متردِّدة في الانتقال إلى النُّزُل الآخر، لأنه وسخ وينتشر فيه الاختلاط. إنها مجبرة إذاً على أن تختار بين الأخلاق الحميدة وسعة العيش. ثم طفقت تحدثني عن أخلاق تلك الفتاة التي اختارت أن تقطن في أقصى الحديقة لكي لا تختلط بنا.

قلت:

- وما السبيل إلى أن تعرفي مسبقاً من يسكن في ذلك النُّزُل؟

أجابت:

- جرت العادة في إنجلترا أن لا تسكن في المنزل الواحد إلا عائلة واحدة.

إن زوج هذه المرأة الانجليزية غريب الأطوار حقاً، لا همّ لديه إلا التجول في شوارع باريس. يخرج من النُّزُل خمس مرات في اليوم، ثم يعود متأبّطاً قنينة أو قنينتَين. أصادفه حيثما حلَّ أو ارتحل يهرول في الشوارع منحني الظهر وكأن قوى ما خارج ذاته تجبرهُ على ذلك. وينتقل من يسار الشارع إلى يمينه، أو يضع رأسه على واجهة متجر ما يتفرّج على ما بداخله، ثم سرعان ما يتقهقر ويهرول إلى جهة أخرى. أحياناً، أصادفه يتنزّه مع زوجته لكن ليس في شوارع باريس. ولكنه لا يهرول ولا ينتقل من مكان إلى آخر فجأة حين يكون بصحبتها، وإنما يسير خلفها منحني الظهر على عادته. أغلب الظن أنه ممّن يشاركون النساء في ثرثرتهنّ التافهة.

الجمعة، 6 أكتوبر.

حين كنت في الطريق إلى درسي كالمعتاد، صادفتُ شاباً بولندياً كان قد طرقَ باب غرفتي في مناسبتَين سابقتَين بذريعتَين مختلفتَين. في المرة الأولى، طرقَ الباب بذريعة أنه يبحث عن سيدة ما، لكني أجبته من وراء بابي الموارب بنبرة حادّة، فانصرف. وفي المرة الثانية، طرقَ بابي وقال إنه توصل برسالة، وأن أحد النزلاء سمح لنفسه بفتحها، ثم سألني إن كنت أنا من فتحتها. دعوته إلى الدخول، واستمعت إليه، ولمّا فرغ من الكلام عن رسالته، قمتُ وأنا أسأله إن كان لا يزال لديه ما يضيفه. فهبَّ واقفاً وقد أُحرج، ثم حيّاني وخرج. وحين مررت اليوم أمام باب معهد تعليم الأطباء، سمعتُ صوتاً من خلفي يقول: «احتراماتي» لكنني مضيت قُدُماً ولم ألتفت إلى مصدر الصوت. لكن الصوت ما لبث أن تكرّر من جديد «احتراماتي»، وما لبث الشاب البولندي أن ظهر أمامي وهو يقول إنه رآني أبتسم حين مررت به، وأني لا شكّ كنت أسخر منه، ولا أزال. أجبت أني لم أرَه. فقال: «أما أنا فرأيتك، ومهتم بك».

لم أردّ على كلامه السوقي. لكنه سألني إن كنت مستاءة من زيارتَيه السابقتَين. أجبته بالنفي، لأن زيارتَيه كانتا مبرَّرتَين. قال إني تخلّصتُ منه حينئذ بلباقة وحسن تصرف بحيث لم يعثر على كلام مناسب للردّ عليّ وإن كان يرغب في ذلك. وواصلَ كلامه التافه إلى أن وصلت إلى واجهة العمارة حيث تقطن السيدة «ب». ودّعته، وعبرت إلى الرصيف الآخر. لكنه مكثَ مسمّراً في الرصيف المقابل لحظة، ثم سرعان ما عبر الطريق والتحق بي وهو يقول: «ها أنت

تتخلصين مني الآن باللباقة نفسها». أخبرته أني أتيت لزيارة سيدة تقطن هذه العمارة، ثم دخلت وتركته مسمّراً في مكانه.

أمس، قبل موعد الغداء، صادفت الشاب الفالاشي في الحديقة، فتجاذبنا أطراف الحديث. أخبرته أني اشتريت شاياً، وأني أشربه لأني أشعر بالملل، ولأنه يعوِّضني عن اللذات الأخرى جميعها وعن الأصدقاء. ردَّ بأن الشاي لا يستطيع أن يعوِّض عن اللذات والأصدقاء. وافقت على كلامه. ثم سألني عن الشعب الذي أفضله من بين كل شعوب الأرض، وأردف: «يجب أن نحب أصدقاءنا الفالاشيين». أجبت أني لا أعرف عنهم شيئاً، وأنهم لا يتميزون بشيء على حدّ علمي، وأردفت: «أما نحن الروس فصحيح أننا سيّئون، ولكننا على الأقل لسنا شعباً غير لافت للانتباه».

الثلاثاء، 9 أكتوبر.

حين كنت في الطريق إلى تلقّي درسي (في اللغة الإسبانية)، صادفتُ المُزارِع يتجول في شارع الأطباء بجانب أحد رفاقه وهو يتحدث إليه ويضحك. كان يسير مطأطأ الرأس بحيث لم أتعرّف إليه إلا بعد لَأْي. لا شكّ أنه رآني قبل أن أراه.

منذ أيام قليلة، بعثتُ إلى الطبيب، بعد أن زارني ولم يجدني في بيتي، رسالة في غاية الحميمية. فأجابني برسالة باردة فظّة، قائلاً إنه لا يملك من الوقت ما يكفي كي يزورني (كان قد زارني مرتَين، ولم يجدني في كلتيهما). ثم اقترح أن نكتفي بحصة واحدة تشمل الدرس والكشف، وترك لي حرية تحديد ميقاتهما على أن أتجنّب الأمسيات

لأنه يخصّصها للراحة. ثم عاد وحدّدَ لي الموعد بنفسه، وثمن الدروس. أتى في الموعد المحدّد وقد بدا [غير مقروء]، وسألني عن حالتي الصحّية. أجبته، ثم تناولت دفتر الدروس وأخبرته أني طالعت دروسي. فقال على حين غرة أنه لا يستطيع أن يراجع معي الدروس اليوم، وأعرب عن رغبته في الانصراف. وجدت صعوبة في تقبُّل غطرسته، فسألته هل هو غاضب مني. اندهش مستغرباً أن أستطيع النطق بمثل هذا الكلام. صدمت بكلامه، فقلت وقد عجزت أن أخفي حزني لأني أخطأت التقدير، وأردفت وأنا أبتسم بسمة حزينة: «هيا، انصرف». ولمّا كان موعد الدرس التالي، أتى في الموعد المحدّد كعادته وشرع يطمئنّ على حالتي الصحية باستعلاء، ثم غيّرَ الموضوع فجأة ودعاني إلى أن نشرع في الدرس. حين جلس أطلعني على الساعة، فرميته بنظرة دهشة محمّلة بالفضول وقد انقبضَ قلبي من شدة الحزن. شعرت بالإهانة، فلم أتمكن من كتمان غيظي إلّا بعد لأي. ولم تزد بعض أفكار الكتاب الذي كنت بصدد قراءته إلّا من مضاعفة تأثُّري، بحيث أني اضطررت إلى الخروج من المنزل كي أخفي ما أشعر به من انفعال. ولمّا غادرَ المنزل انفجرت باكية. يا لقلبي الضعيف الذي لا يتحمّل مثل هذه المداعبات الفظة! لقد أوحى إليّ هذا الظرف الفريد من نوعه بأفكار جادة، فقررت ألّا أقدم على شيء بعد اليوم إلّا بعد أن أقلّبه على كل وجه. وإني لعلى يقين من أني سأنجح في مسعاي، لأنني فتاة لا تخفي شيئاً وتشجب المخاتلة.

لكن يا للقوة التي أحتاجها كي أصمد أمام مثل هذه التهجُّمات المجانية!

مرضت السيدة روبسكور أمس. أصيبت بأزمة عصبية، فتأثّر جميع النزلاء، وأمضوا الليل كله يبحثون عن الأطباء ويسعون للحصول على الأدوية. كنت أرغب في أن أعيدها، لكني لم أهتدِ للطريقة المناسبة، ولم أدرِ إذا كانت عيادتي لها ستروقها أم لا. تناول السيد روبسكور وجبة الغداء برفقتنا. **ولأنه لم يأتِ إلّا حين أوشكنا على الانتهاء** من الغداء، اضطر إلى أن يجلس بجانبي. فسألني عن حالتي الصحية، بينما جميع النزلاء يسألونه عن حال زوجته. أجابهم بهدوء أن حالتها تحسّنت. كنت أريد أن أسأله أنا أيضاً عن حالتها الصحية، لكن الفرصة لم تواتني. يا له من موقف محرج!

19 أكتوبر.

كدت أتصالح مع الطبيب. قلت له بعد كل ما حدث، أني نسيت زياراته، ونسيت عددها لأني لم أعدّها، وأن الخطأ خطؤه في كل ما وقع بسبب تناقضه. وذكرته أنه كان يرفض الحصول على مقابل في الأيام الماضية، وأننا نستطيع الآن، بعد أن انتهت المهزلة، بأن نناقش الأمر بدقّة. اضطرب، وقال إنه لم يكن هازلاً، وأراد أن يبرِّر سلوكه، لكني دعوته أن يؤجِّل الأمر إلى لقاء آخر، وذلك لأني كنت في غاية التأثر. وأثناء لقائنا التالي، بدوت منشرحة، فقال بعد أن تجاذبنا أطراف الحديث: «أرى أنك منشرحة الآن، فهل يمكن أن نعود إلى نقاشنا السابق كما وعدت؟».

أجبته:

- ولماذا تريد أن نعود إليه؟ ألم تقل إنك لم تكن هازلاً؟ وقد

صدّقتك. بل أعترف أنه لم يكن يحق لي أن أقول ما قلته أثناء لقائنا الأخير، وأني لم أقل ما قلته إلا لأني أطلت الحديث معك.

- لكن أخبريني بربك هل آمنتِ حقاً أني تعمّدت مضايقتك؟

- كان يجب أن تعلم أنك ستضايقني بتصرُّفك.

- وأنت، هل لديك علم بما يضايقني؟

- أتريد أن تقول إنك تصرفت معي بكل عفوية؟

- لا، لن أزعم ذلك، ولكنّ لي أعذاراً لا علم لك بها لأنك تجهلين الكثير من الأمور...

كان يتكلم بحماس يثير الشفقة. سألني هل تضايقني زياراته، وقال إنه مستعدّ للتخلي عنها إذا كانت تضايقني؟ أجبته: «لا، إنها لا تضايقني بتاتاً، لماذا تسألني هذا السؤال؟» وأردفت بكل ما أستطيع من هدوء: «كأنك تجهل أن زياراتك تسرُّني!».

- لا أجهل ذلك، ولكن كان يمكن أن يتغيّر الوضع.

أخبرته أن صديقاً من روسيا اسمه أوتين وصلَ إلى باريس، وأنه لا أقارب لديه ولا أصدقاء يلجأ إليهم، لذلك سيتردد على بيتي مراراً.

فقال بصرامة:

- لم تكوني في حاجة إلى تبرير.

لم أفهم ما يلمّح إليه، فطلبت أن يكرر كلامه.

حين كرر كلامه بالصرامة نفسها، أدركت ما يقصده، فاحمرَّ وجهي.

وحين زارني أوتين وحدّثته عن الطبيب، قال إن أخ الطبيب

رجل شرير. أذهلني ما سمعته منه، ولكني وجدت فيه تفسيراً لكثير من تصرفات الطبيب.

الخميس، 19 أكتوبر.

أخبرني شابٌّ فرنسي من النزلاء أثناء جلوسنا إلى مائدة الفطور أن نقاشاً دار بين النزلاء قبل مجيئي حول الحياة في الريف والحياة في المدينة، وأن السيد روبسكور من أنصار العيش في المدينة، أما هو فمن أنصار العيش في الريف. قلت إني دهشة من رأي السيد روبسكور، وأني، فيما يخصني، لا أحب المدن الكبرى حيث لا أصدقاء ولا أي شيء آخر. قال إنه يخاف أن يعيش في الريف حيث لا أثر للعلوم ولا لأي شيء آخر (ألا نعثر على الكتب في البوادي؟). أما أنا فأرى أن المدن الكبرى صالحة للقطيع لا للأفراد، وأن الإنسان يجب أن يكون إنساناً قبل أي شيء، ثم مواطناً، ثم صانعاً وعالماً بعد ذلك. إن الحياة الدنيئة في المدن تخضع لمصالح وحسابات دنيئة، ولا تسمح للفرد بالتفتُّح والتطور.

الجمعة، 20 أكتوبر.

زارني أمس فجأة الشاب سالياس محمّلاً برسالة من أمه تخبرني أنها ستأتي لزيارتي. لم يعجبني رغم أني كنت أتوقّع العكس. فقد كنت أتمنى أن يكون أحسن ممّا تخيلته، فإذا به شاب رخو. لا شكّ أن الشاب الجورجي صموت، ولكنه خير منه وإن كان يحاول أن يثير

إعجابي، لا لأنه يتصنّع، ولكن لأنه يريد أن يثير انتباهي إلى أنه يعرف الكثير من الأمور. ورغم ذلك، فهو يستطيع أن يكون شاباً بسيطاً حين يريد. قال إنه حين كان يبحث عني صادفَ عجوزاً اشتغلَت طوال حياتها وتجمّعت لديها كثير من الأموال، فهي الآن تعيش في اطمئنان.

أما أوتين فخيرٌ من الشاب سالياس أيضاً، لأنه ذكي شجاع، ويحب التمتُّع بالحياة. لكن الشاب الجورجي خير منهما كليهما.

في المساء زارتني يفغينيا تور وابنها، كما زارني أوتين والشاب الجورجي أيضاً، وقد كان هذا الأخير أول من أتى لزيارتي. لم يتوقع أن تزورني يفغينيا تور وابنها والشاب الجورجي، لذلك حدثني على انفراد قائلاً: «أود أن أهرب»، قلت ضاحكة: «لا، فقد فات الأوان، فأنت لا تستطيع ذلك الآن». لم ينصرف. احتكرَت يفغينيا الكلام أكثر من غيرها طبعاً، وكنت أنظر إليها تتطلع إليّ متسائلة: «هل أعجبك فاديم؟».

لكي ألتقي بالكونتيسة اليوم، توجّهتُ إلى منزل ابنة خالتها حيث التقيت بمن أتوا لزيارتي أمس (باستثناء الشاب الجورجي). تجاذبنا أطراف الحديث حول أمور تافهة.

تحاورتُ قليلاً مع فاديم حول قضية اللغة، فتحمّست أثناء النقاش.

سألني أوتين عن ألخازوف. رافقني أوتين وفاديم إلى منزلي، وكانا يتحدثان عن إسبانيا. قال أوتين عن صواب:

- لا شكّ أنها قضية انتهت، لكن نستطيع أن نحولها إلى قضية راهنة مع ذلك.

- لا، لن يكون الأمر الآن كما كان في الماضي، سيكون كما لو أنك تتزوج للمرة الثانية، أو تحب للمرة الثانية، والحال أن المرء لا يملك أن يحب إلا مرة واحدة.

قال أوتين:

- للأسف. إنك تفكر بهذه الطريقة لأنك شابّ في مقتبل العمر.

قلت إنه حكم غير عادل. واستشهدت بلوكريزيا فلورياني[1] التي أحبّت كثيراً، وكانت تعتقد في كل مرة أنها تحب لأول وآخر مرة. قال فاديم إن الحب بالنسبة إليه مؤجّل إلى مستقبل بعيد جداً، فردَّ عليه أوتين: «عليك أن تكون مستعداً للموت في أية لحظة». لكن فاديم أصرَّ على أن ينكر استعداده لذلك. فقال أوتين: «واضح أنك فتى متشرِّب لمبادئ الكاثوليكية. فأنت لا تهاب الموت».

يا لها من نظرة حسية فظة للأمور!

رافقاني في طريق العودة إلى منزلي. ولمّا كنت أودعهما أمام الباب، اقترحَ فاديم أن يرافقني إلى الداخل. فدعوتهما أن يصعدا إلى غرفتي، لكنهما رفضا. وحين مددت يدي إلى أوتين كي أودّعه، شد عليها بقوة ولم يتركها. فأخذت أنظر إليه دهشة، ثم دعوته إلى زيارتي متى يشاء، فأنا لا أبرح منزلي في المساء. والتفت بعد ذلك

---

(1) بطلة رواية لجورج ساند **لوكريزيا فلورياني**. ومعلوم أن ساند كانت من بين الكاتبات المفضّلات لدى دوستويفسكي، وأنه أقدم على ترجمة روايتها **آخر امرأة من عائلة ألديني**، لكنه لم ينشرها، لأنه اكتشف أن ترجمة الكتاب نشرت من قبل.

إلى فاديم وقلت إني أتمنى أن يزورني مراراً. مرَّ بنا الشاب الفالاشي في الفناء كئيباً.

ألقيت في تلك اللحظة نظرة من خلال النافذة المشرفة على الحديقة، فرأيت جولي جالسة بجانب أبشع الشباب الفالاشيين. أشاحا عني بوجهيهما، لكني خمنت أن جولي كانت تبكي، فأخذت أمعنُ النظر إليهما. وفجأة، صرخَت جولي وسقطَت على الأرض على ظهرها. فأخذ الفتى الفالاشي ينظر إليها، ثم تخطّى رجليها بهدوء تامّ، ونادى صاحبة النُّزُل. دخلت هذه الأخيرة إلى الحديقة، وأخذت تنظر من بعيد، ثم قالت حانقة: «**لا فائدة في مثل هذه الحركات**»، وشرعت تنادي الخادم. حمل الخادم والخادمة المكلّفة بتنظيف الغرف جولي إلى الصالون فاقدة الوعي، وأعتقد أنهما تركاها هناك وحيدة لأني سرعان ما سمعت صاحبة النُّزُل تتحدث مع الفتى الفالاشي بمرح. لم أسمع من كلام الفتى الفالاشي إلا قوله: «إنها امرأة سيّئة السمعة».

ثم سمعت صاحبة النزل تسأله: «هل ستأتي لتناول وجبة العشاء؟».

أجابها:

- لا أعلم، يتوقف ذلك على أنواع الأطعمة.

فأخذت تعدِّد له أنواع الأطعمة المقرّرة للعشاء. كانت المريضة لا تزال أثناء ذلك وحيدة حيث تُركت. قالت إنها أطباق تختلف عن تلك التي قدِّمت بالأمس، ثم أردفت أن النزلاء لا يحبّذون أكل الأطباق نفسها دائماً.

في المساء نفسه.

منذ أخبرني روبسكور بعزمه على الرحيل من النُّزُل وأنا أستعدّ لأن أطلب منه صورة من صوره، لكن الفرصة لم تواتني. كنت آمل أن يأتي لتوديعي. سيغادرنا اليوم، وقد أتى لزيارتي في غرفتي بالفعل. قلت إني آسفة على رحيله، وطلبت منه إحدى صوره. فقال إنه لا يملك صوراً، ولكن سيبعث إليّ بواحدة فيما بعد. ثم طلب صورة من صوري، فناولته إياها. أردت أن أعيد إليه الكتاب الذي استعرته منه، لكنه طلب مني أن أحتفظ به كتذكار. في تلك اللحظة، دخلت المرأة الإنجليزية. فلمّا رأت رجلاً لا تعرفه، كادت أن تعود أدراجها معتذرة، لكني رجوتها أن تدخل. فدخلَت ومكثَت برفقتنا بضع لحظات. أخذنا نتجاذب أطراف الحديث، فتحدّثَت عن أوتين، لكنها ما لبثت أن ذهبت. لمّا انصرفت، وبقينا في الغرفة وحدنا، قال روبسكور إنه سيعود في شهر أبريل، وسيحاول البحث عني. سألني أن أكتب إليه من وقت لآخر، ودعاني إلى زيارته إذا سافرت إلى نانسي، وتركَ لي عنوانه. وحين همَّ بالانصراف، تناولَ يدي وقبّلها. في تلك اللحظة، همهمتُ بكلام غير مفهوم بصوت مضطرب، فقبّل يدي من جديد. أخذت أنظر إليه، وأحطتُ عنقه بساعدي، والتقت شفتانا... حينئذ، أخذنا نتكلم كلاماً غير مترابط تتخلله القُبل. كان يرتعش من رأسه إلى قدمَيه، وكان وجهه مشرقاً بالابتسام والسرور. أنا أيضاً كنت مسرورة. لكني ما لبثت أن وضعت حدّاً لقُبلاتنا الحارة، ودعوته أن ينصرف. دفعته بعيداً عني، لكني سرعان ما تقدمت نحوه فجأة مادة يدي نحوه. سألني هل أريد أن يتخلى عن السفر إلى نانسي، ومتى يستطيع أن يعود لزيارتي. فأجبته: غداً

مساء. توادعنا عدة مرات. كنت أطرده من الغرفة، فيرجوني أن أمنحه قُبلة أخرى. لكني عثرت على قبّعته في النهاية، وفتحتُ له الباب. بعد أن ذهب، عدت إلى رزانتي قليلاً، وذهبت لزيارة المرأة الإنجليزية ووجنتاي لا تزالان محمرّتَين من شدة القُبل الحارة. عندما عدت إلى غرفتي، سمعت صوت السيدة روبسكور على السلَّم. اقتربت من النافذة فرأيتهما معاً يعبران الفناء برفقة خادم تحمل حقائبهما. ولكنه ما لبث أن عاد أدراجه، وأخذ يتحدث مع صاحبة النُّزُل.

أحسست بدوار. لست أدري كيف سينتهي هذا الأمر. أعتقد أنه يحبني، بل إني كنت متأكدة من ذلك قبل ساعتَين، أي قبل أن أسمع صوت السيدة روبسكور. آه كم بدا سعيداً حين كنا معاً، وكم بدا مرتعشاً مضطرب الصوت!

23 أكتوبر.

لم يأتِ الفتى الفالاشي لزيارتي، ولم يكتب إليّ.

زارني الطبيب أمس. قلت إن الفتى الإسباني الوسيم ليس إلا حثالة. فأجاب أن حكمي في غاية الراديكالية. قلت: «طبعاً، ولكنه حثالة رغم ذلك. يقولون إنه فتى وسيم، لكني لا أجده كذلك». وأردفت:

- حاجباه جذابان، إنهما بنفس عرض جبيني.

ثم قلت إني أسعدت ثلاثة رجال في حياتي، وكشفت له عن أسمائهم. فعقب قائلاً:

- هذا يعني أنك ساهمت في انتشار الحضارة.

وقال عن بتشورين إنه معجب بنفسه كما غروشنتسكي[1]. أثارتني هذه المقارنة، لأنها المقارنة نفسها التي خطرت لي في تلك اللحظة.

أخذَ أوتين يدافع عن فاديم قائلاً إنه تحدّث معه حديثاً طويلاً، فخلص إلى أنه فتى لا يستهان به. لكنه دهش من رأيي فيه رغم أن كلماتي لم تكن عنيفة.

زارتني المرأة الانجليزية وأعلنت ساخطة أن السيدة كابرينيو تضع الدانتيلا على القبّعات التي تبيعها للفقراء، وأن اللباس في باريس لا يعكس الطبقة التي ينتمي إليها الأشخاص.

2 نوفمبر.

استقبلتُ أوسوف وأوتين أمس. لا أدري لماذا قال أوتين إن عقل الإنجليز محدود. أما أوسوف فدافع عنهم. قال أوتين إن مكانتهم السياسية تقهقرت منذ موقفهما من القضية الدنماركية والبولندية.

- نعم، لكن هذا لا يعني شيئاً. فالسياسة الخارجية لم يعد لها أي وزن في الوقت الراهن. فهم متشبّثون بمبدأ عدم التدخل في شؤون الآخرين، والملاحظ أن لويس نابليون نفسه سحب قواته العسكرية من روما.

- يا له من مبدأ عظيم! اليوم يسحبون قواتهم، وأمس تدخلوا في دولة المكسيك. وسترى أنهم سيحاربون غداً في مكان آخر.

---

(1) الأول بطل رواية **بطل من هذا الزمان** لليرمنتوف، والثاني بطل رواية **ابنة الضابط** لبوشكين.

- لا شكّ في ذلك، لكن مبدأ عدم التدخل في شؤون الآخرين يعكسُ التوجُّه الإنجليزي رغم ذلك. إن الشعب الإنجليزي يتمتّع بالحرية التامة، وهو ما لا نجده في أي دولة أخرى على الإطلاق.

- إن جميع السلط هناك في قبضة أرباب الصناعة.

- لكن العمّال أحرار رغم ذلك.

- نعم إن وضعهم يتحسّن، لكن بعيداً عن سلطة رأس المال، بل عن المال نفسه.

- تتحدّث عن رأس المال. إن لديهم رؤوس أموال ضخمة، فهم يعيشون عيشة أحسن من عيشة الموظفين في بلدنا.

- العمّال؟ لو كان الأمر كما تقول، فلماذا يتحدث تين في كل صفحة من صفحات كُتبه عن بؤس العمّال؟ ما هو سبب جوعهم؟

- المشكل أنه لا يمكن للناس جميعاً أن يصبحوا عمّالاً.

- ها أنت ذا تستخلص الخلاصة نفسها.

- لا، إنها ليست الخلاصة نفسها. الوضع يتحسّن في الوقت الراهن، إذ أصبح بمقدور العمّال أن يصبحوا مُلّاكاً، وإن كانت نسبة الملّاك بين العمّال لا تزال ضعيفة.

- وماذا تستطيع الدولة أن تفعل في مثل هذه الحالة؟ إن الحكومة لا تستطيع أن تتدخل في مثل هذه الأمور، وخير لها أن لا تتدخل.

- إذا كان ذلك خيراً لها، فلماذا تقف في صف الطبقة البرجوازية وتدعمها؟ لا، إن الصراع في مثل هذه الحالة يصبح غير متكافئ، إذ نجد من يملكون كل شيء في جهة، وفي الجهة الأخرى

من لا يملكون شيئاً. سترى ما سيحدث جرّاء هذا الوضع بعد الانقلاب القادم الذي هم بصدد التحضير له.

- لا أستطيع أن أجزم أنه لن يحدث أي انقلاب، فكل شيء ممكن. لكني لست من أنصار الثورة. أعتقد أنه كان ينبغي أن نتخلى منذ زمن طويل عن تلك الفكرة التي تقول إنه لن نستطيع أن نجني من الثورة أي شيء إيجابي. طبعاً، قد يصدق ذلك على بلد مثل روسيا، حيث عدد الأميين ستون مليون أمي، وحيث يكفي أن يعارض شخص واحد مثقف الوضع القائم كي تتصدى له الدولة على الفور وبأي وسيلة من الوسائل، لكن الأمر يختلف في الدول التي بدأت تخرج من هذا الوضع. صحيح أنهم لا يزالون في بداية المشوار، ولكن سترى كيف ستتحول هذه البداية المتواضعة مع مرور الوقت إلى تقدُّم عظيم في وقت وجيز. إننا لا نلمسُ هذا التحول الآن، لأننا تعودنا على النتائج العظمى التي تحدث دفعة واحدة. إننا في حاجة إلى ثورة (وإن كانت الثورة لا تستهويني، وأنظر إليها على أنها مجرد شرّ لا بدَّ منه).

16 نوفمبر.

في الأيام الأخيرة، قضيت كل أمسياتي في منزل الكونتيسة حيث التقيت بباكونين[1]، فأعجبني. قال يوماً: «إننا لا نملك أن

(1) ميخائيل باكونين (1814-1876) فيلسوف روسي ثوري فوضوي، التقى في باريس بماركس وأنجلس وبرودون وهيرزن، وشارك في ثورة باريس سنة 1848، ألقت عليه السلطات الألمانية القبض وسلّمته لروسيا، لكنه فرَّ من سجن سيبيريا إلى خارج البلاد حيث عاش ثائراً إلى حين وفاته.

ننجز شيئاً من دون إيمان، ولكن الإيمان يمكن أن يؤدي إلى الموت أيضاً. إن كل ما نَمنحُه للسماء نَحرم منه الأرض».

قبل أيام قليلة، زارني الطبيب وطلب مني مالاً. كان جلياً أنه في حاجة إلى المال، فلم أتردد في مساعدته بكل لطف. بدا مسروراً. تجاذبنا أطراف الحديث كثيراً. وحين حان وقت ذهابه، قال: «يقول تاليران إننا مُنحنا نعمة الكلام كي يصبح فكرنا ضبابياً غامضاً، أما هاينه فيقول إن الكلام لم يخلق إلا لكي نقول كلاماً طيباً». وتساءل: فمن منهما على صواب؟ السؤال الآن هو: هل يجب أن نتكلم أم نصمت؟ لم أدرك قصده... فانصرف في الحال. ولم أفهم قصده إلا بعد أن انصرف. بالأمس بدا لطيفاً. لا شكّ أنه متواضع وطيّب. صحيح أننا لا يمكن أن نحبه حبّاً جمّاً، ولكن قد يجعلنا نشعر نحوه بحب عابر.

حين فرغنا من الدرس أمس، أرادَ أن يجلس بالقرب من النار، واقترح عليّ أن أقترب من المِدفأة، لكنني رفضت لأن رأسي يؤلمني. فقال: «سأمكث هنا إذاً». لكنه ما فتئ أن طلب مني أن أقترب من جديد، فقلت:

- اجلس قرب المدفأة وحدك إذا شئت، أما أنا فلا أريد. ما هذه النزوة التي استحوذت عليك فجأة؟ فليجلس كل واحد حيث يريد، فلن يمنعنا ذلك من تجاذب أطراف الحديث.

- نعم إنها نزوة كما قلت، ولكن لا بأس بالنزوات، فهي ليست مضرّة.

تُرى، من أين واتته الشجاعة؟

اقتربت من المدفأة، لكنه أبعد مقعده عن مقعدي. وحين رأى

خبزاً، طلب مني هل يستطيع أن يتناول قطعة منه. قلت لا مانع، وشاركته الأكل. ثم اقترحت عليه أن نشرب شاياً، لكنه رفض قائلاً إن تحضير الشاي سيصرفني عنه، في حين أنه يريد أن يحادثني، وأن هناك درساً ينتظره في مكان آخر. قلت:

- تستطيع أن تتغيّب عنه.

قال مسروراً:

- صحيح، أستطيع.

ثم أردف بحزن:

- نعم، لكن يجب أن أذهب إلى الدرس رغم ذلك.

لم ألحّ. ولم يقل شيئاً ذا بال، ولكنه شكرني بكثير من البساطة والسذاجة حين ودّعني.

قلت له مرة وأنا أحدثه عن فتى يوناني وسيم، أني لم أكن أعر الجمال أيام شبابي الأول أي اهتمام، وأن أول من أحببته كان رجلاً في الأربعين.

قال:

- كنت في السادسة عشر آنذاك، أليس كذلك؟

- لا، في الثالثة والعشرين.

19 نوفمبر.

زارني فاديم اليوم، فتحدثنا عن الحب. قلت:

- كم هو عذب حديثنا، ولكنه لائق رغم ذلك.

- لا، إنه ليس لائقاً على الإطلاق.

- كيف ينبغي أن نحدّث امرأة عن الحب، وعن الأزهار، وعن الشعر إذاً؟

- ليس الشعر والأزهار إلا لهواً، أم الحب فأمر جادّ. فقد وُجد منذ وُجد العالم، ومن لم يحب فهو غير جدير بأن يكون إنساناً.

- الأزهار والشعر متوفّران هما أيضاً منذ زمن طويل، ومن لا يشعر بجمالهما فليس إنساناً.

الأربعاء، 30 نوفمبر.

حضرت يوم الأحد حفلاً موسيقياً رفقة كاريف. وعدنا إلى المنزل مشياً على الأقدام ونحن نتجاذب أطراف الحديث في مواضيع مختلفة. سألته عن بلده ومتى ينوي العودة إليه، لكنه لم يبح لي بشيء يذكر.

قال إنه سيمضي على خُطى أبيه، فيصبح فلاحاً وينشئ أسرة، ولن يحيد عن هذا الطريق إلا إذا عثر على وظيفة ما في المدينة.

وقعت لي قصة غريبة منذ وقت قصير. وذلك أن طبيباً روسياً، قادم من بلدنا منذ مدة غير طويلة، تصرّف معي تصرُّفاً من السوء بحيث أني منعته من زيارتي في منزلي ثانية. كان كاريف قد رآه في بيتي من قبل، فسألني عن أخباره يوم السبت. قلت إني كنت مجبَرة على أن أمنعه من زيارتي، لأنه غبي. قال إنه قد أصدر في حقه الحكم نفسه، وأنه سعيد لأنه سمعني أصدر في حقه هذا الحكم. وأردف: «سأعرف كيف أتصرف معه حين نلتقي في المستشفى».

قلت إني لا أريد منه شيئاً. لكنه قال: «لن أدعوه للنزال على كل حال، ولكني أفضّل أن أكشف عن حقيقته». ثم اقترح أن أرافقه إلى سان-جيرمان، فوافقت بسرور.

حين كنت أتلقى درساً في اللغة الفرنسية أمس، زارني فاديم وأوتين. دخلا غرفتي بجلبة. ولمّا أدركا أنهما أتيا في وقت غير مناسب، أحرجا، لكنهما طلبا مني أن أسمح لهما بالمكوث خمس دقائق. تحدّثا قليلاً. ولمّا طلبت من فاديم أن يخبر أمه أني لن أستطيع الذهاب إلى شاتليه هذا المساء، أخذ أوتين يرمقني ويبتسم ابتسامة رغّبتني في أن أزور الكونتيسة لأبرهن له أنه ليس هناك أي سبب خاص يمنعني من زيارتها، لكني لم أذهب لزيارتها. ولما شددت على يد «ب» قلت في معرض وداعنا: «لا تذهب، ولنبقَ معاً لنتسلى ونضحك».

قال إنه مشغول بأمور كثيرة. كنت متأكدة أنه لا يكذب. قال:

- يسعدني أن أمكث هنا معك، فأنا أشعر بالراحة في منزلك، لكن يجب أن أذهب إلى الدرس، ثم إلى المستشفى للأسف. وأتمنى أن تنظري إليّ بعين الشفقة على الأقل.

- اشفق على نفسك.

- لا تظني أني من الزهو بنفسي بحيث لا أرغب في أن يشفق عليّ الآخرون.

- أما أنا فيجب أن أشفق على نفسي، لأني لا أجد من يشفق عليّ.

هرولَ نحوي، وأمسك يدَي بين يديه، وقال وقد تذكّر الكتاب الذي قرأنا معاً:

- إما أن نؤجّل الأمر إلى وقت لاحق، إلى أن يحدث **التحول المرجُوّ**. . .

ثم واصل كلامه:

- وإلا سيفوت الأوان. . .

- إلى اللقاء.

قال إنه سيحرص على أن يزورني يوم السبت، ثم نبّهني إلى أن الشبّان لم يغلقوا الباب وراءهم، وأني يجب أن أؤنّبهم.

أتت الكونتيسة لزيارتي اليوم. وحين أعدت إليها القصة القصيرة التي كتبها ابنها، قلت لو كنت من المسؤولين على الرقابة لمنعت نشرها. . . يا لها من خدعة محكمة: مكّنتني من أن أمدح القصة وأن أقول رأيي فيها بكل صراحة في آن معاً[1]!

السبت، ديسمبر 1864.

سقطت فريسة المرض منذ أيام قليلة، وانضاف إلى ذلك حاجة ملحّة إلى المال أرغمتني على اللجوء إلى مدير البنك. طلبت من الكونتيسة أن تزورني كي تنصحني، فأتَت على الفور، لكنها بدت باردة للغاية، ونصحتني أن أعهد بالقضية إلى بيني. قلت إنه مشغول، وأننا لسنا أصدقاء. لكنها شكّت أن يكون مشغولاً، ونصحتني باللُّجوء إلى ألخازوف. ولمّا قلت إن الأمر مستحيل، نصحتني

(1) لا شكّ أن الإشارة هنا إلى قصة «عتمة» التي نشرت سنة 1863، في العدد 12 من مجلة **المعاصر**.

بأوتين. لم أقل شيئاً. ثم قلت إنه حين أحتاج شيئاً من أحد سألجأ إلى صاحبة النُّزُل.

ولمّا كان الغد، بعثت برسالة إلى أوتين أرجوه أن يزورني في أسرع وقت ممكن لأنني مريضة. أخبروني أنه سيأتي حالاً، لكنه لم يأتِ إلا بعد أربع ساعات برفقة سالياس. كان قد مرَّ به قبل أن يأتي إلى زيارتي، فعلم بكل شيء. كنت منفعلة جرّاء قراءاتي وجرّاء هذا القدوم المفاجئ، فعاملتهما بفظاظة، لا سيما سالياس. حين سألني هذا الأخير: «هل ينبغي أن نزورك مرة أخرى؟»، أجبته: «لماذا؟».

عادَ أوتين إلى زيارتي في الغد، فقلت إني عاملتُ سالياس بفظاظة. أجاب أنه دهش من تصرفي، وأضاف أن سالياس غضب أمس لسبب ما لا علم له به، وأنه لم يكن يحقّ له ذلك.

أخبرت أوتين أني التقيت بكاريف، فاستأذنني في أن يعرّفني إلى رفيقه.

سألني:

- ومتى يأتيان لزيارتك؟

قلت:

- لا أعلم.

يبدو أن كبرياءهما قد جُرِح. فقد كانا سعيدَين بزيارتي، والحال أني كنت في حال أحسن قبل أن يزوراني. سألني أوتين: «هل تشعرين بالملل؟».

فأجبته:

- لا، أنا بخير. لست مريضة جداً، وأستطيع أن أعمل. على كل حال، بمَ تختلف حياتي الآن عن الحياة التي أحياها دائماً؟

- سألتك هذا السؤال لأنني سمعتك تتنهّدين.

حين ودّعني قال إني لا ينبغي أن أحْذَره، وأنه سوف يفهم كلامي على أحسن وجه دائماً.

ولما اشتدَّ عليّ المرض مساء، كتبت رسالة إلى بيني، فهبَّ إلى زيارتي صباح الغد قبل أن أستيقظ من النوم. حين فتحت الباب، رجوته أن ينتظر ريثما أعود إلى السرير. عدت إلى السرير، ودعوته إلى الدخول. كان في غاية القلق، فشدَّ على يدي بحرارة وهو يحييني. أبقيتُ يده في يدي لحظة. لكنه سرعان ما ذهب. وعاد في المساء، وفي الغد، وبعد غد أيضاً. في الغد، مكثَ برفقتي طويلاً. جلسَ في الركن المقابل، وتحدّث إليّ طويلاً حديثاً طيّباً وقد حافظ على كامل هدوئه. قال إنه لأمر سيّئ أن لا يحترم الناس حرية أصدقائهم، بل ولا حتى حرية معارفهم. وأردف: «طيب، لا أنكر أنه صديقي. ولكن ما دخله إذا اضطررت غداً إلى أن أسرق مالاً مثلاً؟ أليس كل واحد منا مسؤولاً عن أفعاله؟».

درّسني اليوم. أحسست بالحرارة لأني كنت قريبة من المِدفأة، فابتعدت عنها. ثم ذهبت إلى حال سبيلي بعد ذلك. قال إنه يشعر أني غائبة عن الدرس، ودعاني أن أقترب منه. لم أقترب، ومكثَ هو مكانه. قلت إني يجب أن أحوّل بعض المال، فاقترح أن ينوب عني في ذلك. فأعطيته مالاً لعلّي أراه مرة أخرى. زارني، لكنه وجد كاريف معي. حين رآه بدا وكأنه فقدَ بشاشته، وعاد من حيث أتى على الفور وهو يقول إنه سيعود لزيارتي يوم الثلاثاء، أي فقط حين أكون في حاجة إليه، لأني كدت أشفى من مرضي. يا له من فتى معتزّ بنفسه!

الاثنين.

أصبحت فكرة العودة إلى روسيا تراودني. ولكن إلى أين أعود؟ وإلى منزل من؟ منزل أخي أم منزل أبي؟ أبداً لن أكون حرّة هناك كما أريد. هل هدفي أن أتحمّل أن أصبح عالة على أحد؟ ماذا يجمعني بأولئك الناس؟ هل أرغبُ في نشر أفكاري في المجتمع؟ يا لها من فكرة غبية! من ذا سوف يرضى بأن يضع أطفاله بين يدَي؟ أعتقدُ أن الأحوال في روسيا ليست سيّئة إلى تلك الدرجة التي يشيعونها. أليس الهدف المنشود أن يكون الشعب في وضع حسن، أي أن يستطيع أن يأكل حتى الشبع؟ نحن نعلمُ أن الشعب يأكل كما لم يأكل من قبل، ما سيمكّنه من قطع أشواط كبيرة نحو التطور. أما الوضع في الجامعات بعد أن أغلقت أبوابها فليس مؤثّراً.

قال صديقي الطبيب يوماً إنه بلا وطن. لكن ما معنى أن يكون للمرء وطن؟

14 ديسمبر.

زارني ألخازوف الأحد الماضي، فحدّثني عن شبح الاضطهاد في بلده. بدا يائساً من شدة العجز. إنه يرغب في أن يهاجر إلى تركيا حيث هامش الحرية أكبر. يا لوضع الإنسان المعاصر! ألم يتبقَّ لديه أي مخرج غير الهجرة إلى تركيا! أعجبتني هذه الفكرة. قال:

«هناك لن أشعر بالعجز على الأقل»، ثم أردف أنه كان يرغب أن يستقدم أخاه الأصغر، لأن المدارس سيّئة هناك. لكنه غيّرَ رأيه

بعد أن احتكَّ بالأخلاق السائدة هنا. «أستطيع أن أراقبه، لكن كل ما يمكن أن أمنحه إياه لن يعوِّض ما سيفقده بالبُعد عن البلد، لن أستطيع أن أعوِّض أمه ولا إخوته، ولا الطبيعة، لن أستطيع أن أعوِّضه عن تلك الأمور التي تبني الشعور وترسّخ الطباع. والحال أن هذه الأمور هي الأهم، إذ يستطيع المرء أن يشرب من ينبوع الثقافة متى شاء، ولكن لا يستطيع أن يرسّخ طباعه بعد فوات الأوان».

تجاذبنا أطراف الحديث بكل صدق وصراحة.

زرتُ الكونتيسة اليوم. كانت قد عادت لتوها من السفر حيث رافقت السيدة أوغاريف. حكت لي عن السيدة أوغاريف أموراً فظيعة. قالت إن السيدة أوغاريف -المرأة التي يذكرها الجميع على مختلف مشاربهم وقناعاتهم بسوء- هجرَت زوجها، وربطت علاقة مع هيرزن. قالت إنها رأت بأم عينَيها هيرزن يزور تلك المرأة سكران، فاقترحت عليه بمجرّد دخوله أن يشرب مزيداً من الخمر بدعوى أنها لم تجد شيئاً آخر تقدّمه له. لا شكّ أنها أوقعت زوجها في حبها بهذه الطريقة نفسها التي تحاول أن توقع بها هيرزن، أي بأن تسقيه خمراً حتى يتعتعه السكر. حين ودعت السيدة أوغاريف السيدة سالياس حمّلتها رسالة، فسألتها هذه الأخيرة: «هل أسلّمها للسيد أوغاريف؟»، فأجابتها: «بل إلى هيرزن، وقولي له إن عليه أن يرافق أوغاريف وأن يأتي إلى زيارتي في الحال. إنه رجل قوي، ولكنني لا أضمن نفسي». وقارنت في معرض الكلام عن أولادها بين علاقتها بهم وعلاقة مريم العذراء بابنها عيسى.

حين أخبرت صديقي الطبيب يوم السبت أني مسافرة إلى «ب»،

لاحظتُ أنه انفعل. ولما أزفت لحظة الوداع، سألته ببساطة: «هل يمكنك أن تقدم لي خدمة بأن تعثر لي على عنوان هناك؟».

- عنوان مَن؟

- عنوان «ك»[1].

تغيّرت نبرة صوتي حين نطقت هذا الاسم...

وعدني بأن يتكفّل بذلك. فأخبرته أني لست متعجّلة، لكنه حمل إليّ العنوان اليوم. فوجئت كثيراً لمّا أتى لزيارتي في وقت غير مألوف. قال بعد أن حياني: «هات ورقة».

ناولته الورقة وأنا أعرب عن دهشتي من أن يأتي لزيارتي في مثل هذا الوقت. لكنه تجنب النطق باسم «ك»، والإفصاح عن هدفه من هذه الزيارة.

ذهبتُ لإحضار قلم فحمي، وسألته وأنا أخرجه من الدولاب: «هل أحضرت العنوان الذي طلبت؟». ثم رجوته أن يمكث برفقتي قليلاً. فمكثَ، لكن ليس لوقت طويل. فقد كان في غاية الحزن.

أشعر أني أنزلق نحو الدناءة، وأغرق في «وحْل عكر»، وأني لم أعد أشعر بذلك الحماس ولا بذلك السخط المنقذ اللذين كانا يحولان بيني وبين كل ذلك في الماضي.

فكرت في الأمر ملياً، فتحسّن حالي. لا شكّ أن لدي كثير من الأحكام المسبقة. فلو لم أقع في الحب فيما مضى، ولو لم يكن الطبيب مكلّفاً بعلاجي، لكانت العلاقة بيننا مختلفة عمّا هي عليه الآن. أين راحت الشجاعة التي كنت أمتلكها في الماضي؟ حين

---

(1) أي سالفادور.

أتذكر كيف كنت قبل عامَين، أمقتُ دوستويفسكي، فقد كان أول من قتل في نفسي الإيمان. ولكني أريد أن أزعزع حزني هذا لعلّي أتخلّص منه.

مكتبة
t.me/t_pdf

20 ديسمبر.

قال الطبيب بخصوص الكونتيسة (بعد أن قلت إن هذه الأخيرة لا تحبه، وبعد أن اعترف بصحّة ذلك رغم أنه لا يروقه) إنها عاجزة عن الحب. يا لها من حقيقة مرعبة!

قال المزارع إنه يفضل أسلوب شِعر أندريه شينييه[1] عن أسلوب شعر ألفريد دي موسيه[2]، لأن هذا الأخير لا يرى في الحياة إلا الشرّ، ولا يؤمن أن فيها ما من شأنه أن يرقى بالإنسان، وذلك لأنه كان شقياً تعيساً في حياته الخاصة، وأنانياً لا تهمّه إلا نفسه.

21 ديسمبر.

زارني الطبيب. قال بخصوص الحب إن حياة الأفراد كحياة الدول، مليئة بالأفعال وردود الأفعال. يقع الفرد في الحب في فترة من حياته، فيقول لنفسه، يكفيني حباً الآن، أريد أن أصبح محبوباً وإلا لا داعي لأن يستمرَّ الوضع على ما هو عليه.

---

(1) أندريه شينييه (1762-1794) شاعر وصحافي فرنسي، من ملهمي التيار الرومانسي في الشعر الفرنسي.

(2) ألفريد دي موسيه (1810-1857) من كبار الشعراء الفرنسيين. عضو الأكاديمية الفرنسية.

31 ديسمبر.

توصلت اليوم برسالة من أختي، فأجبت بالرسالة التالية[1].

14 يناير.

إن عدد الرجال الذين يفقدون احترامهم لامرأة بعد انتصار سهل عليها قد يكون أكبر ممّا ظننته أول الأمر.

15 يناير.

ها قد اكتشفتُ أخيراً ما يمكن أن تحدثه الإشاعات الكاذبة من تأثير. أعربَت صاحبة النُّزُل عن عدم رضاها لأنني لم أخبرها أني نقدت ليوني أجرها. قالت: «يجب أن تكوني منتصرة لأصحاب النُّزُل لا الخدم».

فأجبتها:

- لا يمكن يا سيدتي أن أنتصر لأصحاب النُّزُل ولا للخدم، فأنا أنتصر للحقيقة. ولكن يمكنني رغم ذلك أن أعيد إليك المال الذي خسرته بسببي.

ومضيت إلى حال سبيلي. سألَت الخادمة عمّا قلته فيما بعد، فأجابتها: لا شيء. وبعد بضع ساعات قدمت السيدة روي إلى

(1) لم تعمد أبوليناريا إلى نسخ الرسالة.

غرفتي كي تعتذر. والحال أنهما جعلاني في موقفٍ دون كيخوتيّ لا أُحسد عليه، إذ لجأت ليوني، لكي تدفع صاحبة النُّزُل أن تؤدي لها أجرها، إلى ادّعاء أني لم أنقدها أجرها، وأن غرفتي في حالة من الفوضى تتطلب الكثير من العمل، وأني أكثر النزلاء حركة ودلالاً.

زارني أوتين اليوم، فتناقشنا حول رواية **آنا كارنينا**. كان مبعث نقاشنا صورة السيدة كارينين التي رآها في غرفتي. خالفته الرأي حول فرونسكي[1] بحماس، وبرهنت له أن فرونسكي ربما دفعته أسباب وجيهة إلى أن يهجر آنا، مضيفة أنه ليس من العدل أن نطلب من شاب في مقتبل العمر أن يكون مسؤولاً عن نفسه وعن الآخرين. لكن أوتين لم يشاطرني الرأي، وقال إن فرونسكي كان يجب أن يتزوج آنا أو يفترق عنها في الحال إذا لم يعد يحبها، أو **يؤمّن لها مستقبلها على الأقل**. يا له من رأي غريب! أينبغي على كل شاب أن يتخلى عن السعادة وعن الحب لا لشيء إلّا لأنه لا يستطيع أن يتزوج من يحب؟ أما في ما يخص تأمين مستقبل من نحب، فأكتفي بالتساؤل: أليس من حقّ الفقير أن يحب؟

سأترك باريس، وأنتقل للعيش في مدينة صغيرة. لقد ضقت ذرعاً بالنفاق الاجتماعي، وأصبحتُ أرغب في أن أعيش في عزلة كي أبتعد عن الكذب. إنني أعيش وحيدة أغلب الأوقات، لكن يبدو لي أحياناً أني لست وحيدة حقاً، فأنتظرُ رغم أنفي وقوع أمر ما، بل إني آمل ذلك شاعرةً بدرجة عالية من الانفعال.

---

(1) عشيق آنا كارنينا، في رواية ليو تولستوي الشهيرة.

أريد أن أكون أقرب إلى الطبيعة، لأن الطبيعة وحدها تكافئ الناس جميعاً بالطريقة نفسها، ولا تمنع عطاياها عن أحد. وسأكون سعيدة أكثر لو استطعت أن أسكن في منزل قرب البحر.

حيّر قراري المزارع وأوتين، أمّا الطبيب فلم يكترث. ولكنه سألني بعد أن ذكّرته مرتين بأني راحلة: «هل يعقل أن تكوني جادة في قرارك؟».

يا له من سؤال تافه! هل يعتقد إني أمازحه؟ أما ألخازوف فبدا سعيداً من أجلي، من أجل...

21 يناير.

تناولت وجبة الغداء أمس في فندق الأزهار. كانوا يتحدثون هناك عن امرأة شنقت نفسها، ولا يرْعَوُون عن ذكر التفاصيل. تحدّثوا عن الطريقة التي ربطت بها الحبل، وتساءلت السيدة فرنوي: «ترى من ربط الحبل بتلك الطريقة؟ ربما زوجها».

طلبت من الطبيب اليوم أن يرشدني إلى أحسن مكان يمكن أن أرحل إليه، وحدّثته عن إسبانيا، فقال: «اذهبي إلى فالنسيا حيث أنوي الذهاب أنا نفسي. يكفي أن تكتبي إليّ رسالة حين تصلين».

قلت قلقةً ودون أن أعيرَ اقتراحه أي اعتبار: «يا له من ترف!». ثم غيّرت الموضوع طالبة منه أن يصبح طبيبي المعالج في تلك المناطق الإسبانية النائية. فوافقَ، واقترح أن يزودني برسالة تزكية موجّهة إلى طبيب صديق.

ثم اقترح أن يدرّسني درساً في اللغة الإسبانية بعد ساعات

قليلة، لكنه فضّل أن يؤجّله إلى وقت لاحق، لأنه رأى أني ما زلت مريضة قليلاً.

حين غادرني، أخذتُ أتخيّل تفاصيل نزهة عظيمة في إسبانيا...

26 يناير.

زارني الطبيب أمس. وبعد الدرس تجاذبنا أطراف الحديث كما العادة. فأطلعته على صورة كاتينكا وأنا أقول: «انظر إليها. إنها جميلة حقاً». لكن الصورة لم تعجبه، وقال إن مثاله في ما يخصّ الجمال الأنثوي هو جمال المرأة في تمثال فينوس دي ميلو. أجبته أن جمال تمثال ميلوس شبقي إلى حدٍّ بعيد. لكنه لم يشاطرني الرأي، وقال إنه يرى فيه جمال امرأة فخورة بنفسها.

منذ ثلاثة أيام مضت، كنت عائدة من وجبة الغداء خارج البيت، فتذكّرتُ المُزارع، وأردت أن أتأكد إن كان يقطن في العنوان الذي بين يدَي. فتشجّعت، ودخلت العمارة التي يسكنها حسب معلوماتي. عند مفرق طرق الأوديون، انعطفت نحو شارع راسين. فصادفته شخصياً في شارع كورناي صحبة إحدى السيدات. كانت العتمة تخيّم على المكان بحيث لم أستطع التأكد منه. التفتُّ إليه عدة مرات، فرأيت أنه يفعل الشيء نفسه. وحين التفتُّ إليه في المرة الأخيرة، رأيته يقف مسمّراً إلى جانب تلك السيدة. كان قلبي يخفق بشدة. عبرت الشارع، وصعدت أدراج الأوديون. تحت الأروقة حيث تعرض الكتب للبيع عادة، كان كل شيء غارقاً في العتمة.

سرت بخطى خفيفة كالسارقة، كي أصبح في مواجهته وأراقبه. في تلك اللحظة بالذات، عبرَ الشارع وهو لا يزال برفقة تلك السيدة، ومضى تحت المجاز حيث تباع الصحف وحيث المكان خالٍ من العتمة. تعقّبته عن غير قصد. كنت أراه وسط الزحام من بعيد. كان يبتعد عني شيئاً فشيئاً في شارع فوجيرار، فتعقبته. وحين اقترب من حديقة لوكسمبورغ اقتربت منه أكثر، ومشيت خلفه. كنت أريد أن أرى وجه تلك السيدة، لكن دون جدوى. كل ما رأيته أنها سيدة شقراء. لم يكن يتحدث إليها إلا قليلاً، وكان برفقتهما رجل يسير إلى جانبه. لم أتمكن من سماع شيء من كلامهم. حين وصلوا إلى شارع «م»، التفت المزارع، فرأيته جيّداً. لا شكّ أنه رآني بدوره، لكن لا أدري إن كان قد عرفني. أشكُّ في ذلك. يبدو أنه التفت من دون سبب (أو بقوة مغناطيسية ربما). مكثتُ خلفهم قليلاً. شعرت بالخجل والحزن. ولم أعد أدري أينبغي أن أسير قُدُماً أم أتقهقر إلى الوراء. توقفت، إلّا أن قوة خفية دفعتني إلى الأمام، فاستأنفت السير. ولكن، إلى أين؟ ولماذا؟ وتوقفت من جديد وأنا أنظر إلى المارّين في الشارع الواسع وهم ينظرون إليّ. سألني أحد الرجال:

- هل تبحثين عن شيء يا آنسة؟

فأجبت بعنف:

- اذهب، دعني وشأني.

انعطفت إلى شارع «م» الغارق في العتمة، ثم عدت أدراجي نحو منزلي. فكرت أول الأمر أن أتوجّه إلى فندق الأطباء لكي أسأل هل يسكن هناك، لكن لم أجرؤ على الذهاب لوحدي، لذلك ذهبت

إلى الكونتيسة على أمل أن ألتقي بأوتين، أو أطلب من سالياس نفسه أن يرافقني.

كنتُ في غاية الانفعال، فقلت أشياء تافهة، ثم انتهى بي الأمر أن أعلنت أني سأعود إلى بيتي. فاقترحَ أوسوف أن أنتظره لحظة كي يرافقني، لكني قلت إن عليّ أن أعود في الحال. دعت الكونتيسة أوسيف إلى أن يبقى معها قليلاً، وأن يدعني أذهب لأني أستطيع أن أعود إلى البيت وحدي ما دامت الساعة لم تتجاوز التاسعة، لكنني قلت إني أتمنى أن يرافقني أحدهم قليلاً، ثم يعود بعد ذلك إلى بيت الكونتيسة. أصرَّ أوتين أن يرافقني. حاولت أن أحافظ على برودة أعصابي ما أمكن. سألني:

- لماذا تودين أن يرافقك أحدنا قليلاً؟

أجبته بلا مبالاة:

- لأني لا أريد أن أكون وحدي حين أعبر أحد الأمكنة غير المطمئنة، ولأني أريد أن أعثر على عنوان شخص من معارفي أيضاً.

أراد أن يعرف من يكون، فأجبته جواباً مراوغاً. قال إني أقول كلاماً تافهاً لا معنى له... إلخ. ورغم ذلك رافقني إلى أن دخلنا إلى تلك العمارة. ولكنه رفض أن يستعلم، فاستعلمت بنفسي. أجابني صاحب العمارة بفظاظة:

- أنا لا أعرف هذا الاسم.

فعلّقَ أوتين قائلاً:

- لقد خاب مسعاك.

أجبته:

- لا بأس، سأحاول غداً.

ثم أنّبني من جديد، فحاولت أن أبرِّر ما أقدمت عليه بأن قلت كلاماً تافهاً بكثير من الحماس. قال:

- أرى أنك في غاية الانفعال.

أجبته:

- نعم.

وفجأة، توقّفتُ عن الكلام، وسحبت ذراعي من تحت ذراعه ومضيت.

حين حييت الطبيب أمس، أخبرته أن «ك» لا يسكن في العنوان نفسه الذي معي. فاقترح أن يستعلم منه لأنهما يلتقيان كل يوم. ولما كنت في الطريق إلى منزل الكونتيسة اليوم، صادفته فجأة في شارع معهد الطب. لم أتوقع ذلك، فتسمّرت في مكاني محرَجة وقد احمرّت وجنتاي. لم أنظر إليه، ولكني أحسست أنه أصبح أكثر جرأة وأكثر ثقة بنفسه بعد ردّ فعلي المضطرب.

أعتقد أنه أصبح أكثر جمالاً. فقد منحَ الشعر الأصفر الذي نبتَ فوق شفته العليا لوجهه فحولة فريدة حيوية. يا له من وجه جميل مليء بقوة شابة لا تعي سحرها!

28 يناير.

اقترح أوسوف أمس أثناء جلوسنا إلى مائدة الغداء أن نذهب إلى مسرح بوبينو، فذهبنا نحن الأربعة: أنا وهو، وصاحب النُّزُل، ونيكالوبولو. يا له من مسرح قذر حيث الكلام المتبادَل بين المتفرجين بذيء، وحيث السيدات يقمن بحركات تُخجل الناظرين! إنه خليط من

الدعابات البذيئة، ومن الترّهات الفظة الساقطة. وإن المتفرجين، وأغلبهم من العمّال، يضحكون بكل حرية أغلب الأوقات. ليست القذارة فحسب هي السائدة في هذا المسرح، وإنما الشجاعة في الإقدام على مثل هذه الأمور الساقطة والنجاح الذي تلاقيه في أوساط المتردّدين عليه. لو أتيح لي أن أشاهد ما شاهدته هنا في [غير مقروء] لتفهّمت الأمر. أما أن أرى ما رأيته وسط المتفرجين، وفي مسرح، فأمر لا أستطيع تفهُّمه على الإطلاق. اقتحم عدة طلاب شرفتنا، وشرعوا يتصرفون بسوقية غريبة، ويصفّقون للعرض بمبالغة لا تصدق، ويصيحون بملاحظات مختلفة موجّهة للممثّلين. أكّدَ أوسوف أنهم سيطرَدون، لكن المسؤولة عن حفظ النظام لم تزد على أن دعتهم إلى التزام الهدوء. أثناء الاستراحة، اقترحَ أوسوف أن نتوجّه إلى المقهى. لكن الوضع في مقهى المسرح لم يكن أفضل، إذ كانت الفوضى العارمة والسوقية والمجون، في كل أركان المقهى. فهذا يلعب الورق ويعانق خليلته. وذاك يتودد إلى امرأة للتقرُّب منها. ورأيت لوكراس نفسه يغازلُ السيدة فرلوي، ويراودها عن نفسها. وآه كم كانت تلك المراودة غبية وقحة! ولما انتهت الاستراحة وعدنا إلى العرض المسرحي، جلسَ في الشرفة المجاورة لشرفة السيدة فرلوي، وأخذ يتلصّص عليها.

زارني الطبيب اليوم ودرّسني كالمعتاد. كانت أعصابي من التوتر بحيث كنت أدرس وأبكي. أعتقد أنه رقَّ لحالي، لكن لا شكّ أنه لم يهتدِ إلى سبب انفعالي. كنت جالسة على كنبة أول الأمر، وكان هو جالساً قرب المدفأة، لكنه ما فتئ أن انتقلَ إلى الجلوس بجانبي حين شرع أحد الجيران يعزف على البيانو، فاتكأ على الكنبة، واقترب

مني كثيراً بحيث أنه لما طرقَ أحدهم الباب اضطر إلى أن يبتعد (ابنة أخت صاحبة النُّزُل هي من طرقت الباب). ولكني لم أكن أنظر إليه، ولم أنتبه لجلسته ولا ملامح وجهه حينئذ. ولمّا انتهى الدرس، سألني عن موعد الدرس القادم. ضربت له موعداً يوم الثلاثاء، فوعدني أن يزورني يوم الاثنين ليطمئنَّ عن أحوالي.

فاتحته في أمر هجرتي إلى إسبانيا، فقال إن السفر إليها قد لا يتطلب الحصول على تأشيرة. وحين أكدت له أن التأشيرة ضرورية، قال: «أرى أنك على علم تامّ بكل ما يستوجبه السفر إلى إسبانيا». (كلا، لو كنت على علم تامّ بكل شيء لما بقيت عالقة هنا).

لم يحمل إليّ عنوان المُزارِع رغم أني طلبته منه. سوف أذكّره المرة القادمة. حين حدّثته عن سفري، قال إنه قرار جيّد، وأنه يتمنى لو يزور إسبانيا هو أيضاً.

سوف أخبره أنه لم يحظَ بإعجاب ابنة أخت صاحبة النُّزُل، وإن كنت قد أخبرتها أنه شاب طيب، وإن كان متقلِّب المزاج كالنساء.

السبت، 4 فبراير.

اقتربت مني طفلة صغيرة قبل أيام قليلة حين نزلتُ عربة القطار قرب محطة القصر الملكي، ودعتني أن أشتري منها أزراراً. فأعطيتها قليلاً من النقود دون أن آخذ منها الأزرار. لكنها أصرّت أن آخذها، فتناولتها ومنحتها قليلاً من النقود مرة أخرى. فما كان منها إلا أن ناولتني أزراراً أخرى، غير أني رفضتها من جديد، وتدخّل سائق عربة القطار الذي كان بالقرب منا صائحاً: «كفى، دعيها وشأنها،

ألا ترين أنها ليست في حاجة إلى مزيد من الأزرار؟». ثم أضاف أن تلك الفتاة لا تقبل نقوداً من أحد أبداً دون مقابل، وهو أمر مشرّف من دون شكّ.

زارني الطبيب اليوم كي يودعني، ويدرّسني لآخر مرة. لكنها لن تكون الزيارة الأخيرة في الواقع. بدا محبَطاً، لذلك انصرفَ قبل موعد نهاية الدرس وهو يقول إنه مريض. قلت:

- واضح أنك مريض. ولكن ما هو مرضك؟

- لا أعلم.

- هل أصبت بنزلة برد، أم نمت نوماً مضطرباً؟

- نمت نوماً مضطرباً للغاية. والغريب في الأمر أنه ليس هناك أي سبب.

لم أقل شيئاً، وتوادعنا كما العادة، فسألته: «هل تزورني يوم الاثنين؟».

- نعم، لا بدَّ أن آتيك بالعنوان (هل هذا هو الدافع حقاً؟ كان يقصد عنوان سالفادور ولكنني تظاهرت بأنه يقصد الطبيب في مونبلييه).

كنت قد قلت له أثناء الزيارة الماضية إنه سيصبح، منذ اليوم، طبيبي الاحتياطي، لأن أختي ستصبح طبيبي الرسمي. فقال معلقاً: «سوف أغار منها. وأعتقد أنه من حقي أن أغار على الأقل».

زارني أوتين. كلّمني بصراحة. فقلت إني يمكن أن أقع في حبه، لكني لا أستطيع أن أحبه حقاً. بدا مهتمّاً بما قلت، فأصرَّ أن أشرح أكثر.

كيف أشرح له ما قلت؟ قلت: «إنك رجل غريب الأطوار»، وتوقفتُ عند هذا الحدّ. لكنه أصرَّ على أن أشرح أكثر. فقلت:

- انسَ ما قلت، إنه كلام تافه.

- لا بأس. لا يهم.

- الحقيقة أني كنت أريد أن أسألك لماذا لا تزورني باستمرار. ولكن يبدو أن الجواب بسيط: فأنت مشغول بالسيدة سالياس.

- أليس هناك تبرير أعمق من هذا التبرير؟

أخذتُ أمازحه، فاعترفَ أن سؤاله تافه. قلت:

- لا، ليس تافهاً، ولكني أعرف السبب الدفين الذي يحول دون زيارتك لي.

- وهل هذا السبب أعمق من ذاك الذي سبق أن ذكرت؟

- نعم، ربما...

ألحَّ أن أكشف عنه. فقلت:

- لأنك لم تحظَ باهتمام كافٍ.

احتجَّ على ما قلت، لكني أردفت:

- أنا أتفهّم تصرّفك حقاً. ما الذي يحملُ الرجل على التردد على امرأة؟ والحال أني لا أمتاز بأي شيء يثير الاهتمام. أما الذكاء والثقافة، فلا أمتاز بهما على الإطلاق.

ثم أخذ يقول مازحاً إنه مهتم بامرأة إسبانية. «ألم تشاهديني أتحدث إليها قرب المدفأة؟»، أجبت أني شاهدته، لكني لا أستطيع أن أميّز بين رجل يغازل امرأة، ورجل يُعرب لامرأة عن حبه، ورجل يريد أن يكون طيباً متأدّباً في الحديث مع امرأة، لأني لا أختلط

بالناس. سألني لماذا انصرفتُ قبل الأوان؟ فقلتُ إني انصرفت في الوقت الذي يناسبني لأني لم أكن في أحسن أحوالي.

بعد ذلك، سألني إن كنتُ أكتب إلى دوستويفسكي. ولماذا لم أتزوّجه؟ وقال إنه كان يجب أن أتحمل مسؤوليته ومسؤولية مجلة **العصر**.

أجبت:

- لأني لا أرغب في ذلك.

- لماذا؟

- لأنها رغبتي، فلو كنت أرغب في ذلك، لعدت إلى روسيا عوض الذهاب إلى مونبلييه.

قال مازحاً:

- ربما يكون هو من لا يرغب في الزواج بك.

قلت:

- ربما.

يتساءل لماذا لا أتحمّل مسؤولية مجلة **العصر**! هل يظنني إيفيجينيا[1]!

(1) ابنة أجاممنون قوية الشخصية في **الإلياذة والأوديسة**، وفي عدة مسرحيات أخرى مستوحاة من الأسطورة الإغريقية.

مونبلييه، 8 مارس.

إن الناس هنا في غاية الطيبة، وإن كانوا متشبّعين بكثير من الأحكام الجاهزة. حين مرضت، مكثَت صاحبة البيت إلى جانبي وقدّمت لي العديد من الخدمات المختلفة. أما الخادمة فكرّسَت كل وقتها لقضاء حاجاتي. أفضِّلُ الناس البسطاء الأميين هنا، على الناس المثقفين، كما هو الحال دائماً بالنسبة إليّ. وذلك لأن الناس البسطاء الأميين يستوعبون كل ما هو طيّب، كل ما لا يُدينه المجتمع، ويحترمون الشجاعة التي لا يملكونها هم أنفسهم، في حين أن الناس المثقفين يعتقدون أنهم على علم بكل شيء، وأنهم شاهدوا كل ما يمكن مشاهدته، ولم يعد يدهشهم شيء. إن القرويين ليكرهون الباريسيين كراهية غريبة تشبه تلك التي يكنّها الفرنسيون أنفسهم للأنجليز. قال لي غولت أمس إن القرية أصل كل العقول النيرة وكل المواهب، وأن الباريسيين مجرد أغبياء. وأضاف أنه يستطيع أن يبرهن لأي باريسي أن الكتاب الذي بين يدَيه ليس في الحقيقة كتاباً وإنما شجرة، فيقتنع برأيه. إن الكراهية التي يكنها طبيبي المعالج للباريسيين متعمَّدة ولا تخلو من خوف في آن معاً. إنه والسيد شانسيل يحبّاني ويحترماني، ويقولان بخصوص الحرية والحقيقة إنهما شيئان إيجابيان. لكن ما رأي الآخرين فيهما يا ترى؟

قلت:

- إنهما ليسا بالفظاعة التي تتصوّرانها.

فقالا:

- نعم، نعم، ينبغي أن يكون المرء فيلسوفاً ليؤمن بذلك.

قلت:

- إلى حدٍّ ما.

قالا:

- بل فيلسوف إلى حدٍّ بعيد.

إنهما يحبان أن يتصرف الآخرون بكل حرية، ولكنهما يمتنعان عن ذلك، ويحبان الحرية حباً غير فعّال.

إن السيدة أوغاريف غريبة الأطوار. فتارة ترى أن النساء ينبغي ألّا يسكنّ مع الرجال حتى لا تختلط منغصات الحياة اليومية بحياة الأسرة، وأن لا يلتقي الزوج والزوجة إلا أثناء أوقات فراغهما (كما هو الأمر في السراي)، وتارة تود ألّا تتزوج النساء على الإطلاق وألّا يعشقن الرجال؛ وتارة أخرى تُعرب عن رغبتها في أن تهجر أوروبا كلها وأن تؤسِّس جمعية أخوية للبرِّ والإحسان، لكنها لم تصادف رفقاء ليساعدوها على ذلك. إنها تقضي جُلّ وقتها تحاول أن تقنع هيرزن بأن يكتب كتيّبات تمدح فرنسا. ولكننا استطعنا أن نركّز حديثنا اليوم على موضوع واحد رغم كل ذلك، فقلت إن علينا أن نكون في خدمة الآخرين، وأن نعلِّمَ القراءة والكتابة ولو لفلاح واحد على الأقل. لكنها ردّت بأنه ليس من الضروري أن نعلِّمَ الفلاحين القراءة والكتابة، لأنهم ليسوا في حاجة إلى ذلك في الوقت الراهن، وأنهم سينسون القراءة لأنه لم يُكتَب أي كتاب من أجلهم حتى الآن، وأن تورغينيف لن ينفعهم في شيء، لأنهم لن يفهموا شيئاً ممّا يكتبه. إنهم لا يفهمون إلا أشعار كولتسوف[1]، ولكن أشعار كولتسوف وحدها لا تكفي كي تغيّر من وضعهم.

---

(1) أليكسي كولتسوف (1809-1842) شاعر روسي شعبي.

قلت:

- هل ترين إذاً أن الشعب يجب أن يكتب كُتباً لنفسه؟

- لا، ليس هذا ما قصدته. إن على [غير مقروء] المتحضّرين أن يخلقوا مجتمعاً صالحاً لأن يتخذوه مثالاً وقدوة، مجتمعاً خالياً من الزواج في الكنائس، ومن تعميد الأطفال، وأن يكتبوا كتباً للشعب الروسي (أو على الأقل لأولئك الذين لم ينسوا اللغة الروسية).

- لكن ما السبيل إلى خلق مثل هذا المجتمع؟ إن مجتمعاً كهذا المجتمع سيرفضه الجميع لا محالة.

- هل يرفضه لوغينين وأوسوف مثلاً؟

طلبت منها أن تقبلَ عضويتي في جمعيتها، ولكني سرعان ما أردفت: ولكن، ما الذي يمكن أن أفعله في مجتمع ينتمي إليه لوغينين وأوسوف.

ثم طلبَتْ مني أن أعثر لها على سمّ بواسطة طبيبي المعالج. فوعدتها بذلك على اعتبار أني امرأة إنسانية مثقفة ولا أؤمن بأفكار جاهزة. لكني لم أستطع أن أفاتح طبيبي في طلب كهذا الطلب لأنني كنت في غاية الخجل. غير أنها استطاعت في النهاية أن تحصل على سمّ عن طريق طبيبها المعالج الذي كان من الغباء بحيث أنه لم يدرك دافعها.

وقعت لي اليوم قصة مثيرة للضحك.

حين ذهبتُ صحبة السيدة أوغاريف لاستئجار شقة، صادفت رجلاً بولندياً تقدّمَ به السن قليلاً توجّه إلينا بالكلام حين سمعنا نتكلم اللغة الروسية. ويوم رحلت إلى الشقة، تركت الباب مفتوحاً، فدخلَ

إلى شقتي دون سبب. فاستقبلته ببرود. بعد ذلك اليوم، مرَّ أسبوعان دون أن أراه. وقد صادفته اليوم على السلَّم، وأعتقد أني بادرت إلى تحيته، فما كان منه إلّا أن تلقّى تحيتي بكل سرور، ودعاني إلى التعرُّف إلى زوجته.

التقيتُ امرأته المتقدمة في السنّ قليلاً في غرفة صغيرة.

ما أن قدّمنا لبعضنا البعض حتى شعرت بالضيق، فقلت لها:

- سيدتي، رغم أني من أصل روسي فأنا...

قاطعني الرجل البولندي قائلاً:

- ليبيرالية.

مكتبة
t.me/t_pdf

فواصلتُ كلامي:

- لا أتفق مع...

فأتمّت المرأة الجملة بالنيابة عني:

- مورافييف. أرى أنكِ لست روسية في العمق.

لكني قلت:

- بل أنا روسية.

عندئذ، انتبهت إلى ما في هذا اللقاء من عبث، فغيّرت الموضوع.

مونبلييه، 24 أبريل.

منذ مدة غير طويلة، تجاذبت أطراف الحديث مع غولت، فقال إن المرأة الروسية أكثر أُنساً ولطفاً من الرجل، تماماً كما المرأة الإيطالية. وأضاف أن وراء كل رجل سياسة إيطالي امرأة تمدّه بالقوة

التي يحتاجها. «إنني أتراسل مع عدة نساء روسيات، لكن لماذا تبدو المستهترات من بينهنّ والطائشات أكثر حزناً من غيرهنّ؟».

قال إن الشعب الروسي لا يعد بالتفتُّح الذي يتوقعه هيرزن والآخرون، وأن روسيا، هي الأخرى، قد عاشَت مرحلة الحضارة مثلها مثل الدول الأوروبية الأخرى، وأن الشعب الفرنسي ما زال يختزنُ بداخله قوى كثيرة.

ثم شرعَ يسخر من الشباب الفرنسي في الوقت الحاضر ومن رزانته، بخلاف الشباب الذي كان شجاعاً متحمِّساً في زمانه.

وبالأمس، حدّثني عن النساء الإيطاليات والإسبانيات وعن الحرية التي يتميّزن بها. وقال إن المرأة الايطالية أو الإسبانية حين تنظِّمُ حفلاً في منزلها تلازِم الرجل الذي يعجبها طوال السهرة، وأن كل الحاضرين ينتبهون إلى ذلك ولا يستغربونه. وحين تنتهي الحفلة وينصرف الجميع، يمكث بصحبتها، فتتعرّى، وتضطجع على السرير في حضرته. يحدث كل ذلك بحرية تامة وعفوية وصدق، ودون مغالاة.

ذهبت أمس إلى أحد المعارض. يا له من معرض لطيف مليء بالأكواخ والمراجيح والمهرّجين! لا بدَّ أن أركب تلك المراجيح أنا أيضاً في إحدى الأمسيات رفقة ابنة أخت السيدة شانسيل.

مونبلييه، 6 مايو.

منذ أيام قليلة، أجريتُ عملية جراحية أقلقتني وأخافتني لا سيما أن الدكتور لم يخبرني مسبقاً. حين أحسسته يشقّ لحمي بالمشرط

خفت. اعتقدت أنه سيستمر في العملية، فأخذت أرجوه أن يتركني وشأني. ولكنه لم يتركني، فتأكدت أن العملية الجراحية ستستمر. أحسست بالألم، والخوف، والغضب في الوقت نفسه، فشدَّت أعصابي إلى أقصى حدّ. كنت أبكي، ولا أتوقف عن البكاء، فأحرج الطبيب وتأثّرَ. واساني كثيراً، حتى لم يتبقَّ لديه من وسيلة لمواساتي إلا أن يقبّل يدي. أعتقد أني عانقته. لكن سرعان ما هدأت. وبعد بضع دقائق، تمددت على الأريكة متعبة كئيبة، مستسلمة، صامتة. فأمسك بيدي كي يواسيني من جديد، وانحنى نحوي بحيث أصبح وجهه قريباً من وجهي، فانزعجتُ وأشحتُ عنه.

(أكّدَ بسرور إنه لن يشقّ لحمي بالمشرط ولن يؤلمني، ففرحت بذلك واعترفت بجميله).

حين كان يجمع أدواته الطبية، قال إني أستطيع بعد هذه العملية أن أنجب. فأجبته أن الإنجاب لن يعزيني بأي شكل من الأشكال. سألني:

- لماذا؟ ألا ترغب جميع النساء في الإنجاب؟

أجبته:

- لأني لا أجيد تربية الأطفال.

تلك الأفكار التي راودتني في تلك اللحظة بعد الحديث مع الطبيب، أحزنتني وأشعرتني بالرغبة في البكاء.

ولمّا حلَّ الغد، أتى الطبيب فخضعت لتعليماته بثقتي المعهودة، لكن اعتقدت، لا أدري لأي سبب، حين شرع يؤلمني، أنه سيجري لي عملية أخرى. ورغم أنه وعدني بأن لا يقدم على شيء من ذلك،

لم أتوقّف عن رجائه قلقة بأن يدعني وشأني. لكنه طمأنني قائلاً: «ألا تثقين بوعود الأطباء الشرفاء؟».

ذكّرتني نبرة صوته بطبيبي المعالج الذي كنت قد قلت له يوماً إننا إذا أغلقنا على أنفسنا بمعزل عن جميع الناس، فسنستطيع أن نتألم من أجل الحرية. فأجابني بأننا سنتألم فعلاً من أجل الحرية حينئذ. قلت: «لأنه ليس كل الناس ميكافيليين». وأذكر أننا كنا قد تصالحنا نتيجة هذا الحديث.

زارني غولت أمس، فدارَ بيننا حديث عاطفي عن الحب، والزواج... إلخ. لم يكن غولت واضحاً ونحن نتحدث عن هذه الأمور. بدا لي وكأنه يخضعني لنوع من الاختبار حين سألني كم مرة أحببت، وهل شفيت من حبي الأخير. فأجبته أني لم أشفَ منه كل الشفاء. ثم سألني كيف أتصوّر حياتي في المستقبل، ونصحني أن أتزوّج، في حين أنه كان ضدّ الزواج أمس. لم يتوقف طوال حديثنا عن سرد قصص مختلفة، وعن المزاح، وختمَ كلامه قائلاً إني أستطيع أن أعتمد عليه إذا كنت في حاجة إلى نصائح... إلخ.

كان قد قال منذ قليل إن الزواج مفيد على العموم، ولكنه لا يصلح لبعض الناس، لا سيما المعتادين على الحرية. وأنه ينفع ملّاك الأراضي الذين يريدون التفرغ لحرث أراضيهم وزرعها، أما المثقفون الذين يرغبون في أن يشاهدوا ويعرفوا كثيراً من الأشياء فلا ينبغي لهم أن يربطوا أنفسهم بالزواج. ثم تساءل: «ما الحب؟ ما الشغف؟». وأجاب: «ليس الحب إلا منغّص من ضمن منغّصات شتى في هذه الحياة، فما على المرء إلّا أن يكتفي بالانشغال عنه بالأدب، وبالعيش رفقة الناس الراقين».

لم أخالفه الرأي. ولمّا صار الغد زارني أستاذي وهو رجل يحب زوجته وأطفاله، وقال إن السعادة لا توجد إلا في الحب. فما بال الجميع يخالفون هذا الرأي؟ من أصدّق؟ أمس قال غولت إن عليّ أن أتزوج، ولكن ليس عن حب، وأن أختار رجلاً ذا مزايا ثقافية وأخلاقية وجسدية، وذا مكانة راقية في المجتمع.

ربما كان على صواب، وربما لا أبتعد عن برنامجه المرتبط بالحياة الثقافية إذا تزوجت رجلاً بتلك الصفات. لكني لن أستسلم لرأيه بسهولة مهما كانت المعاني التي يتضمّنها كلامه.

الثلاثاء، 17 مايو.

قال غولت: «إن الحياة تبدو شيئاً مسلياً حين نتذوقها. فتارة نجدُ بعض الناس يقدمون على فعل ما يعلمون علم اليقين أنه سيّئ، فيقولون في أنفسهم: لا، كل ما في الأمر أننا بالغنا في التهور، وتسرّعنا. وتارة أخرى، تجدين بعض الناس يتميّزون بقلة التهور والتسرُّع. أما أنت فأرى أنك ستكونين ككل الناس الآخرين: ستخدعين بعضهم، وسيخدعك بعضهم».

27 مايو.

شرح لي غولت اليوم السبب الذي جعلَ العمارات في حي إسبولاني منخفضة جداً، فقال إنها بنيت **قبالة** القلعة التي شيِّدت في عهد لويس الثالث عشر، ولا يمكن أن تكون من الطول بحيث تحجب القلعة عن الأنظار.

زيورخ، 29 يونيو.

شاهدت اليوم حفلاً وطنياً يلتقي خلاله الرماة للتباري. أخبرني بذلك السيد العجوز الذي يعمل في الخزانة لحظة خروجي. وحين نزلت الأدراج صادفتُ فريغو، فحدّثني عن التباري في الحفل واقترحَ أن أرافقه. إن هذا السيد يوليني اهتماماً خاصّاً منذ مدة غير قصيرة، منذ مجيئي إلى هنا. حدث مرة، ساعة تناول الشاي، أن طلبت كأس خمر، فقدّموا لي كأس ماء. ولأنني لم أكن أريد أن أخجلَ الخادمة، تظاهرت بأن ذلك ما طلبته بالفعل، لكني لم أدرِ ما أصنع بكأس الماء، إذ لم أكن أشعر بالعطش في تلك اللحظة. فما كان منه، في تلك اللحظة، إلا أن صبَّ لنفسه كأس خمر بكل شجاعة، وأفرغه في جوفه دفعة واحدة وهو ينظر إليّ نظرة معبِّرة. لحسن الحظ، أن أحداً لم ينتبه لما حدث. عدنا أدراجنا اليوم بعد أن شبعنا من مشاهدة الرماة والجبال، وشربنا الشاي. وحين غادرنا صالة الأكل بعد شرب الشاي، اقترحت على كنياجنينا أن نتنزه، فأتَت وأخبرتني أن «ف» سيرافقنا، ولكن ينبغي أن يعرّج على المختبر أولاً. فذهبنا إلى المختبر جميعاً. وهناك أطلعني على أشياء مختلفة، وعلى مادة كيميائية في غاية الجمال، ثم أضاء المختبر إضاءة اصطناعية. فرجوته أن لا يقدم على فعل أمر خطير، لأنني أخاف. طمأنني، فصدّقته، وبقيت إلى جانبه، في حين فرَّت كنياجنينا رغم أنها متخصصة في الكيمياء. وحين وقع انفجار، أمسكت يده وقفزت إلى الوراء.

زيورخ، 27 يونيو.

أمس، حين كنت أحكي أن بعض السيّاح الأميركيين يجوبون أوروبا مشياً على الأقدام، أجابني أحدهم بأنه من الغباء أن نسعى إلى التعرُّف إلى بلد نزوره، وأننا لسنا في حاجة إلى أن نشاهد الأشياء عن كثب. بعد أن سمعت هذا الكلام، أردت الانصراف، لكن لم يتيسّر لي لذلك، فقلت في نفسي: «وما جدوى أن أنصرف في هذه اللحظة؟»... تحدّثت زوجة جاري الطبيب عن العلوم الطبيعية، وقالت إن اللَّوحات الفنية التي تمتح موضوعاتها من التاريخ لا يمكن أن نفهم منها شيئاً، وأن الناس جميعاً لا يفهمونها. وتساءلت: كيف يستطيع من لا ينفذ إلى أعماق مأساة الإنسان أن يفهم [غير مقروء] رسمه صديقي الإسباني؟

سألتها:

- ألا يمكن أن ندرس تاريخ بلد ما من خلال لوحات رساميه إذاً؟

أجابت:

- لا، لا يمكن. فنحن لا نستطيع أن ننجز شيئاً دون مساعدة العلوم الطبيعية.

زيورخ، 30 يونيو.

خرجنا في نزهة أنا وليدينكا (زوجة الطبيب) في نزهة. فقالت إن حديثها عن الفنّ أمس كان تافهاً، فندمت على معارضتي لها.

أبدت عن رغبتها في أن نشاهد لوحات تشكيلية، فأرشدتها إلى تمثال فينوس دي ميلو. لكنها أشاحت عنه بنوع من المقت، وقالت: هذا ليس فنّاً، ينبغي أن نرفضه.

سْبا، 17 سبتمبر 1865.

وصلت إلى هنا أمس. غادرت باريس نهائياً، بعد زيارة لم تدم إلا ثلاثة أسابيع. لا أستطيع أن أجزم أن الأمر كان هيّناً. اقترح أوسوف أن يرافقني إلى المحطة، فقبلتُ بسرور: فقد كنت خائفة أن أبقى وحيدة أثناء الدقائق الأخيرة قبل سفري. ها قد غادرت باريس، أرغمتُ نفسي على مغادرتها وأعتقد أن قراري كان صائباً نزيهاً. قبل ثلاثة أيام، أثناء الليل، بكيتُ يائسة، واعتقدتُ أني لن أملك الشجاعة الكافية كي أتغلّب على دموعي. وصلتُ البارحة متعبة تماماً، فارتميت على السرير لأول مرة منذ تلك الأسابيع الثلاثة التي قضيتها في باريس، فنمتُ نوماً عميقاً هادئاً، وحين استيقظت، رأيتُ عبر النافذة، وأنا مسرورة، سماء صاحية، وأوراق الشجر الخضراء...

أثناء الطريق إلى هنا، أخذتُ أفكر في مستقبلي. فقرّرت أن أعيش في مدينة كبرى من مدن الضواحي، وأن أحيط نفسي بجماعة أنتقيها بنفسي، تكون بمثابة مدرسة مقرَّبة كما في العصور القديمة، لكن ليس في مدينة بطرسبورغ، ولا في قرية صغيرة حتى لا أموت من السأم. هذا قرار، وسألتزم به. ولن أحيد عن هذا الخطّ.

سأروي ما حدث في باريس الآن. حين وصلت إلى باريس

صحبة أختي، استدعيت الطبيب على الفور دون هدفٍ محدَّد. لم أقدم على ذلك إلّا مدفوعة بالرغبة في لقائه. أتى على الفور، فوجدني جالسة في الشرفة، أمّا أختي فكانت في الغرفة. حين سمعت أحداً يدخل، التفتُّ إلى مصدر الصوت. لم أتعرّفه في الحال. وحين عرفته، هرعتُ إليه مادة يدي بانفعال. حدّثته عن غولت، فقلت أني سأسكن، أنا أيضاً، محاطة بالقطط، وسوف أزرع البطاطس، لأنه لا يمكنني أن أزرع الأزهار في بلدي. ثم زارني مرة أخرى، غابَ بعدها أسبوعاً كاملاً. ثم زارني، وقال إنه كان مريضاً. تحدّثنا عن أهم المبدعين، أو بالأحرى تحدّثتُ أنا وأختي أغلب الوقت، واكتفى هو بتأييدنا أغلب الأوقات. لقد أرهقني هذا الحديث بحيث أني فررت منهما، وتركتهما ينهيان النقاش وحدهما. حاولَ، أثناء كل تلك الزيارات، أن ينتهز الفرصة للانفراد بي، لكني لم أمنحه تلك الفرصة. ثم إن أختي كانت برفقتنا طوال الوقت. تساءل ذات مساء عن شكل شرفتنا، وخرج إليها، لكني لم أتبعه. عادَ إلى زيارتي في الغد. فأخبرته بما عزمت عليه والدموع تلمع في عينَي. كنتُ حزينة، فقد كنت قررت أن أهاجر، وكنت بصدد كتابة رسالة أقترحُ عليه فيها أن يأتي ليودعني. كان قد انتبه إلى حالتي النفسية السيّئة، فقلتُ إني لست في أحسن أحوالي. وأمضيت وقتاً طويلاً لا أستطيع أن أخبره بالسبب، لكنه ألحَّ، وعرضَ عليّ المساعدة، بل قال إنه مستعدّ أن يلبّي كل ما أطلب. لكنني رفضت، وبُحت له أخيراً بأني أنوي السفر. سألني عن موعد السفر. وشرع يقول: «بما أني لن أراك بعد اليوم، ولن تبعثي لي بأخبارك...». جلست أمام النافذة كئيبة مستسلمة. أردف قائلاً: «غريب كم يبدو

الناس كالأطفال، فيسعون أحياناً إلى ملاقاة بعضهم بعضاً، وأحياناً أخرى يختبئون عن بعضهم بعضاً، كما يحدث في قصص الحوريات. ها هو ذا نراه يبحث عنها أحياناً فتهرب منه، وأحياناً أخرى نراها تبحث عنه فيهرب منها، فلا يلتقيان أبداً».

ثم تقدّمَ مني منفعلاً، ومدَّ إليّ يديه. فمنحته يدي. أحسست بحرارة الدم في عروقي، لكني أمسكت يديه بقوة، ولم أدعه يقترب أكثر. كان في غاية الانفعال، ويفترسني بعينَيه.

دعوته بهدوء وحزن:

- اجلس.

فردَّ بنبرة حازمة، وهو يشدُّ على يدي بقوة:

- لا.

كرّرتُ:

- اجلس.

- أجلس إذا جلست.

جلسنا على الأريكة، وتلاقت نظراتنا، فتعانقنا. ومكثنا جالسَين متعانقَين ساعتَين تقريباً. كانا ساعداه يطوّقان خصري، وكنت أضمُّ رأسه إلى صدري. أخذت أداعب شعره، وأقبّل جبينه. ونتبادل كلاماً تافهاً، فقد كنّا خليي البال، لا يكدر سماءنا ريبة، ولا يغزو الشكّ روحَينا. ثم ذهبت لزيارة الكونتيسة. فرافقني. حين جلستُ إلى جانبه في العربة، ساعداً حول ساعد، أحسست أن حبه غير صادق - هذا إذا جاز أن نسمّي ما حدث بيننا حباً. نزلنا من العربة. وتوادعنا في الحديقة. بعد أن قطعت مسافة لا يستهان بها، التفتُّ فرأيته ما زال واقفاً يشيّعني بنظراته. لكن وقوفه هناك لم يكن إلا تمثيلاً، بل تمثيلاً

غير متقَن. عاد إلى زيارتي في الغد مساءً. كانت عاطفته الجياشة، وحماسه، بلا حدود، فاستسلمت لتلك اللحظات دون قلق ودون ريبة.

أراد أن أمنحه أكثر ممّا منحته، لكني لم أسمح بذلك، **فأدرك خطأه**. قلت إني ذاهبة. لم أزد على أن أخّرت سفري إلى الغد، أي الخميس. أتى يوم الأربعاء، واعتذر عمّا بدر منه. وقال إنه عاجز عن الحب، وأنه لم يخلق لكي يحب، وأنه لا يود أن يمنح الظروف أو العواطف فرصة التحكُّم في مصيره... إلخ، إلخ.

أجّلت سفري يوماً آخر، إلى الجمعة. وجلست يوم الخميس أنتظر زيارة الكونتيسة التي كانت قد وعدت بمرافقتي. ما أن حيّتني، حتى شرعَت تتلو عليّ نصائحها الأختيّة. ضقت ذرعاً بكل هؤلاء الأغراب الذين يحاول كل واحد منهم أن يستغلني بطريقته الخاصة، وتأثّرت كثيراً. قالت:

- لا تنسي الرب يا بولينكا، لأن الرب سيقويك. أما إذا تخلّيت عنه فستسوء أحوالك. يكفي كي تقتنعي بكلامي هذا أن تنظري إلى حال من لا يتشبّثون بالرب...

لم أتمالك نفسي، فخررتُ على ركبتَي أمامها، وأخذت أبكي بدموع حَرّى. فوجئت، بل وصل بها الأمر إلى حدّ أنها خافت، وأرادت أن تحضر لي ماء. لكني قلت:

- لا، لا، لا داعي، فأنا بخير.

كنت أبكي على صدرها، وأقبّل يدَيها، وأقول:

- أنا تعيسة، أنا في غاية التعاسة.

قالت:

- ومن ذا ليس تعيساً يا بولينكا؟ هل سبق أن صادفت في حياتك امرأة سعيدة من بين النساء اللواتي عرف قلبهنّ الحب؟

عادت إلى زيارتي يوم الخميس، فتوادعنا من جديد وداعاً أحزنني حيث أني أحسست بأني مريضة، وأجّلت سفري يوماً آخر مرة أخرى.

حلَّ مساء يوم الخميس. كان أوسوف معي فلم يبقَ طويلاً. قال مودّعاً:

- لا أودّعك الآن، أتمنى أن أراك غداً.

قلت ببرود:

- لا أعلم إن كنت ستجدني هنا.

قال ملحّاً:

- سأحرص على أن أجدك.

عاد في الغد مساء. كنت سعيدة، ولم أسعَ إلى أن أخفي سعادتي. حييته بمرح ورجوته أن يجلس وقد اعتقدت أنه لن يجلس على المقعد ولكن على الأريكة بجانبي.

رجاني أن أفسح له قليلاً لكي يجلس إلى جانبي، وأمسك يدي بين يدَيه، فقلت إني لست متأكدة إن كنت سأسافر غداً، لأني لا أزال مريضة. فنصحني ألّا أسافر. قلت إني سأعيش في سْبا، في انتظار أن يبعثوا إليّ بالمال. سألني: «ولماذا لا تنتظرين هنا في باريس؟». قدّموا الشاي. فاقترحت ببرود أن يشاركنا. قال وهو يقدم على أن يصبَّ لنفسه كأساً:

- ولم لا، لن يمنعنا فتور البعض من ذلك.

أجبته:

- ذلك خير من الشد على الأيادي بعصبية.

جرحه برودي. شربت كأس الشاي وحدي وأنا أستمع إليه يتحدث عن شيء ما.

قلت:

- اسمع، لماذا عبّرت يوم وجدتني حزينة عن رغبتك في أن تساعدني وأن تبذل كل ما في وسعك من أجل ذلك، وأن **تذلّل كل الصعاب في طريقي إذا أمكن.**

- لقد كنت مستعدّاً حقاً أن أبذل كل ما في وسعي لمساعدتك.

- ما الذي منعك إذاً؟

- اعتقدت أني أساعدك بتعاطفي وبتفهُّمي لقرارك.

- لم أسألك صدقة.

- يا إلهي، يا لها من كلمات فظيعة!

- لماذا مضيت بعلاقتنا إلى هذا الحدّ إذا كنت لا تحبني؟

- لقد مضيتُ إلى حدِّ حبي لك، فقمتُ بما أملاه عليّ إحساسي، لكن يبدو أني أخطأت. اعتقدت أني بذلك أساعدك، ولكن الحقيقة أني أسأت إليك. اعتقدت أنك ستحبينني كما كنت أرغب أن تحبيني. والحال أني متقلّب المزاج، قد أرغب اليوم أن تحبيني بطريقة ما فتحبيني بتلك الطريقة، وقد أرغب غداً أن تحبيني بطريقة مختلفة، فتحبيني بتلك الطريقة المختلفة، وهكذا دواليك. هكذا هو الحال في الحب دائماً. البعض يحِبون، والبعض الآخر يحَبون.

ولكن بما أن الناس أنانيون جميعهم، فإن كل واحد يُحب لنفسه؛ لقد اعتقدت أنك تحبني، لكن يبدو أني أخطأت.

ذهلت. أرادَ أن يمسك يدي، لكني امتنعت، وقلت:

- دعني وشأني، اجلس بعيداً عني، اذهب عني.

- ماذا تقصدين؟ لماذا هذا التصرُّف وقد كنت تحبينني فيما مضى؟ اعلمي إذاً أني لم أتغيّر.

- ما أفظع ما تقوله!

- وهل قلت غير الحقيقة؟

- أهكذا تتصرف بحضرة امرأة لا تحبها!

- آه يا إلهي! إنها ليست إلا تقاليد اجتماعية، لا شك أن شباناً كثيرين قبلي باحوا لك بحبهم! إنك تعجبينني كثيراً، ونحن لا نستطيع أن نكره من يحبّنا على كل حال.

- اغرب عن وجهي، اذهب عني.

- لماذا؟ هل قلت كلاماً فظيعاً؟ قال ملحّاً، ولكني لم أجد كلاماً أردُّ به، فأشحت عنه، ومضيت إلى الطرف الآخر من الغرفة. حاول أن يبرّر ما أقدم عليه. كنت مذهولة وأشعر بالإهانة. قلت: «ما هذا يا ربي؟ فإمّا أني مريضة، وإمّا أحاول أن أكذب على نفسي». وأمسكت على الفور يده، وأخذت أبكي وأنا أقول: «ضمني بقوة، ثم اذهب عني بعد ذلك».

كنت أرغب في أن أنسى نفسي في حضنه للحظة، أن أقنع نفسي أنه يحبني.

سألني:

- هل أعود لزيارتك غداً؟

قلت وقد تبللت وجنتاي بالدموع:

- لا، لا ينبغي لك. غداً أسافر.

وأبعدته عني، ثم جذبته إليّ من جديد والدموع تنهمر على خدي.

قال:

- قبّليني.

- لا، لا.

- سأعود غداً.

- لا تعد.

- دعيني أقبّل يدك.

- لا، لا.

وتوادعنا. فبكيت طويلاً، وأحسست أني لا أزال على أسوأ حال. ورغم ذلك عزمت على السفر، وسافرت.

في مثل هذه اللحظات حين يغزوني القلق واليأس، أفكر في غولت كثيراً. ولعلّ هذا التفكير فيه، وهذا اليقين من أني أستطيع أن ألجأ إلى صداقته، **وعطفه، وتفهُّمه**، هو ما أنقذني. إن إيماني بهذه الصداقة، جعلني أترفّع عن هذه الحياة الدنيئة، وأحسّ بالقدرة على أن أكون أرقى منها. في مثل هذه اللحظات، أشعرُ بقيمة الصداقة والاحترام المتبادَل الذي يكنّه لي أشخاص مختلفون عن الآخرين، فتمنحني هذه الصداقة الصادقة القوة وعزّة النفس. فهل أفقد عزّة نفسي في يوم من الأيام؟ لا، مستحيل، أفضِّل أن أموت على أن أفقدها. أفضِّل أن أموت من الكآبة، وأظلُّ رغم ذلك حرّة مستقلة عن العالم الخارجي، مخلصة لقناعاتي، أن أعيد إلى الربّ النفسَ الطاهرة التي منحني، على أن أتنازل، وأذعن، ولو للحظة واحدة

فقط، لأشياء ساقطة لا تستحق أن نذعنَ لها. ولكنني أرى، رغم ذلك، أن الحياة فظّة حزينة بحيث أجد صعوبة في تحمُّلها. هل يعقل أن أستمرَّ على هذه الحال إلى الأبد يا إلهي؟ أتستحق مثل هذه الحياة أن نولد من أجلها؟

بطرسبورغ، 2 نوفمبر.

التقيت فيودور ميخايلوفيتش اليوم، وتركنا خصوماتنا وخلافاتنا السابقة جانباً. لقد منحني منذ مدة طويلة **قلبه ويده**، ما يجعله سريع الانفعال. قال في معرض الحديث عن طبعي: «إذا تزوجت، سوف تكرهين زوجك منذ اليوم الثالث من الزواج، وسوف تهجرينه».

حدثته عن غولت قائلة إنه لم يبحث عن مقابل من خلال علاقتنا، فردَّ بطريقته المعهودة: «ربما بحث هذا الغولت عن مقابل، مع ذلك»، ثم أردف: «سأبوح لك بشيء في يوم من الأيام».

أصررت أن يبوح في تلك اللحظة.

- إنك لم تغفري لي أنك منحتني نفسك في يوم من الأيام، لذلك تنتقمين. وتلك سمة من سمات النساء على العموم.

دهشت كثيراً. في حضور السيدة أ. أوسيب، دعاني إلى مرافقته إلى المسرح. فأجبت: «لا، لن أذهب. وبما أني لم أذهب برفقتك إلى المسرح يوماً، فما عليك إلا أن تعتبر هذه النزوة من سمات النساء كما قلت قبل قليل».

- وهل تسمحين بذلك؟

- وما أهمية ذلك بالنسبة إليّ؟ لا أستطيع السماح بذلك أو عدم

السماح به. أما أنت فإن تفكيرك المرهف لا شكّ سيدفعك إلى التفكير بهذه الطريقة.

زرت بيوتر إيفانوفيتش أمس، فاستقبلني استقبالاً في غاية الطيبة.

6 نوفمبر.

زارني فيودور ميخايلوفيتش. فتجاذبنا أنا وهو و«أ. و.» أطراف الحديث طويلاً. قلت إني سأصبح قديسة، وسأمشي حافية القدمَين في حديقة الكرملين في موسكو، وسوف أعلن للناس أن الملائكة تكلمني... إلخ. قلت كلاماً كثيراً. قال «و» الذي يؤمن بوجود ذلك الزيت المقدس الذي سقط من أيقونة العذراء، والذي يصوم عن الدهن واللحم كل أربعاء: «إن فيليب ديميدوف قال الكلام نفسه، لكنه اعترف في النهاية أنها مجرّد ترهات».

دهشت لذلك، وأدركت على الفور بأنه من السهل أن نتحوّل إلى فزاعة في نظر مثل هذا الشخص. وخطرت لي فكرة كتابة قصة تستلهم هذا الموضوع.

مُلحق

الرسائل المتبادلة
بين أبوليناريا سوسلوفا ودوستويفسكي

1- رسالتا أبوليناريا سوسلوفا إلى دوستويفسكي:

رسالة أولى[1]

غضبتَ، وطلبت مني أن لا أكتب إليك أني أخجل من حبي لك. ولكني أؤكد أني لم أكتب ذلك قط، لا ولا فكرت في كتابته في يوم من الأيام، لأني أبداً لم أخجل من حبي لك، فقد كان حباً جميلاً، حباً رائعاً. لقد كتبت إليك أني أخجل من نوع علاقاتنا الماضية. لكن هذا الأمر ليس بالجديد عليك، لأني لم أكتمه قط، بل حاولت عدة مرات أن أضع حدّاً لذلك النوع من العلاقات بيننا، قبل أن أسافر خارج البلاد.

لست أعترض على أن تنظر إلى تلك العلاقات على أنها

(1) مسودة رسالة.

علاقات مناسبة. وأتفق معك على أنه لا داعي للعودة إلى الكلام عنها، ولكنك [لم تتم جملتها]

ولكني على يقين اليوم أنك لم تدرك دلالتها وعمقها يوماً، لأنها كانت تناسبك [شطبت على كلمة «مثل»]، وقد تصرّفتَ معي تصرّف رجل جادّ، منشغل، يدرك واجباته بطريقته الخاصة، ولا يفوته أن يستمتع في الوقت نفسه، بل ينظر إلى المتعة على أنها ضرورية، مستنداً على مبدأ ذلك الدكتور أو الفيلسوف الذي يقول إنه على المرء أن يسكر حتى يتعتعه السكر مرة واحدة كل شهر على الأقل.

لا ينبغي أن تغضب إذا [قلت] أنه لا فائدة من أن نعود إلى الكلام عن ذلك. لا شكّ أني أجدُ سهولة في التعبير، ولكنني لا أولي كبير اهتمام إلى أشكال التعبير والعادات المجتمعية المتعارف عليها.

رسالة ثانية

فرساي، 1864، الاثنين (بداية شهر يوليو)[1]

توصلت قبل أيام قليلة برسالتك المؤرَّخة بتاريخ 2 يونيو، فبادرت إلى الجواب. أرى أنك فقدت ذاكرتك[2]، فقد كتبت إليك

---

(1) الحقيقة أن هذه الرسالة، وهي عبارة عن مسودة كسابقتها، يعود تاريخها كما هو واضح من أسطرها الأولى إلى بداية شهر يونيو.

(2) كانت زوجته قد توفيت في منتصف شهر أبريل، وكانت نوبات الصرع قد اشتدت عليه في شهر مايو ويريد أن يحصل على قرض كي يسافر إلى =

من فرساي وبعثتُ إليك بعنواني، وها أنت ذا تسألني أين ينبغي أن تبعث لي برسالتك، إلى باريس أم إلى فرساي؟

بعد أسبوعين بالضبط، سأسافر إلى سْبا. لقد وضعت اليوم حدّاً لعلاقتي مع الطبيب. يمكنك أن تزورني في سْبا فهي قريبة من إكس-لا-شابيل، أي أنها تقع في الطريق إلى هذه المدينة. لم أكن أرغب في ملاقاتك في سْبا، لأني سأكون كئيبة من دون شكّ، لكن إذا لم نلتقِ بهذه المناسبة فقد لا نلتقي في وقت قريب، لأنك لا تعتزم المكوث في باريس مدة طويلة، وأنا لن أعود إلى روسيا في وقت قريب. لا أدري كم سيستمر مقامي بسْبا. كنت قد قررت أن أمكث فيها ثلاثة أسابيع، ولكنني غيّرتُ رأيي، ولم أعد أدري على وجه التحديد هل سأمكث فيها مدة أطول أم أقصر، على أن أسافرَ بعد ذلك إلى حيث أستطيع أن أستعيد عافيتي. إذا شفيت، فسوف أقضي فصل الشتاء في باريس، وإلا سأسافر إلى إسبانيا، إلى فالنسيا أو جزيرة ماديرا.

ما هي تلك القصة التي أنت منشغل بكتابتها حالياً؟[1] سوف نقرؤها معاً. بإمكان يفغينيا تور أن تتوصل بمجلة **العصر**. لست أحب أن تكتب كتابات تهكُّمية، لأنها لا تشبهك، لا تشبهك كما تصورتك فيما مضى.

استغربت حين قرأت أن طبعي لم يعد يعجبك (هذا ما كتبته في

= الخارج للعلاج. أضف إلى ذلك مشاكل المجلة الجديدة، وانشغاله بتأليف تتمة رواية **مذكرات قبو**.

(1) تقصد **مذكرات قبو**، التي صدر جزؤها الثاني (الأخير) يوم 4 يونيو، في مجلة **العصر**، العدد 4.

رسالتك الأخيرة). أذكر أنك كتبت عن طبعي ومدحته فيما مضى مدحاً كان وجهي يحمرُّ عند سماعه تارة، ويغضبني تارة أخرى، وقد كنتُ على صواب. ولكن ذلك حدثَ منذ زمن بعيد، حين لم تكن قد تعرّفت إلى حقيقة طبعي بعد. آنذاك كنت لا ترى من طبعي إلا جانبه الطيّب، ولم يخطر ببالك يوماً أنه قد يتغير إلى النقيض.

تأكد أنك تجانب الصواب حين تطري على مدينة سْبا، فأنا متأكدة أنها قبيحة. إنني أكره هذا البلد بسبب رائحة الفحم الحجري. وها أنت تريد أن تعزيني بأن أخبرتني أن آل فيسكوفاتوف متواجدون في بروكسيل. إنك تجهل أنهم عادوا إلى بطرسبورغ منذ زمن طويل.

الوداع. إنني أرغب في أن أرى كيف أصبحت بعد كل ما عانيته أثناء هذا العام، وأن أسمع رأيكم جميعاً. كتبت إليّ يوماً تريد أن تقنعني بالعودة إلى بطرسبورغ لأن أموراً كثيرة جيدة جدّت، ولأن العقول تطورت كثيراً... إلخ. ولكن النتائج الماثلة أمامي الآن مختلفة تماماً، إلا إذا كانت وجهتا نظرنا وأذواقنا مختلفة. إن عودتي إلى روسيا ليست مرتبطة بتطور العقول طبعاً، فتلك قصة أخرى.

أشكرك على اهتمامك بصحّتي، وعلى نصائحك الداعية إلى المحافظة عليها. سوف أستفيد من هذه النصائح. يمكن أن أُلام على أني أهتمُّ بنفسي أكثر ممّا ينبغي، لا على كوني السبب في المرض الذي تعرضت إليه. لا داعي لمثل هذه الاتهامات التي لن أستطيع أن أنسب إقدامك عليها إلّا إلى لباقتك.

مكتبة
t.me/t_pdf

2- رسائل دوستويفسكي إلى أبوليناريا سوسلوفا وأختها:

إلى أبوليناريا بروكوفييفنا سوسلوفا

فيسبادن، الثلاثاء 22 أغسطس 1865.

عزيزتي بوليا،

لست أدري أولاً وقبل كل شيء إذا كنت قد وصلت إلى شطّ الأمان أم لا. فقد انضاف إلى معاناتي الفظيعة جداً[1] انشغالي بوضعك.

لم أكف عن التساؤل لحظة: ماذا إذا لم تجد هنا في مدينة كولونيا حتى ما يكفيها من المال من أجل تذكرة في الدرجة الثالثة؟ إذا كان الأمر كذلك، فهذا يعني أنك ما زلت في كولونيا وحيدة ولا تدرين كيف تتصرفين. ما أفظع هذا الوضع! إنك تحتاجين في كولن إلى المال من أجل الفندق، والعربة، وتكاليف السفر. فحتى لو افترضنا أن لديك ما يكفي من أجل تذكرة القطار، فلا شكّ أنك تعانين من الجوع لأنك لا تجدين مالاً من أجل الطعام. كل هذه الأمور تؤرقني ولا تبارحني.

ها قد حلَّ يوم الثلاثاء، والساعة الآن تشير إلى الثانية ظهراً، ولم يصلني شيء من هيرزن، وقد حان وقت الذهاب[2]. مهما يكن

---

(1) فقد دوستويفسكي خلال سنة واحدة (1864) ثلاثة من أقرب المقربين إليه: أخاه ميشيل، زوجته ماريا دمتريفنا إيسايفا، وصديقه أبولون غريغورييف.

(2) لكي يؤدّي ما عليه من دين ويغادر الفندق كتب دوستويفسكي إلى هيرزن في جنيف يوم 15 أغسطس يطلب منه أن يقرضه 400 فلورين. كان حينئذ يجهل أن هيرزن مسافر.

الأمر، سأنتظر جوابه إلى ما بعد الغد صباحاً، بعد ذلك سأفقد الأمل تماماً في أن تصلني رسالته. على أية حال، إذا لم تصلني رسالته، فلأنه خارج جنيف من دون شكّ. هذا الاستنتاج يدعمه ما بيننا من علاقة طيّبة، تمنعه من أن يمتنع عن الردّ **بأي حال من الأحوال**، حتى وإن كان لا يريد أو لا يستطيع أن يبعث لي بالمال. إنه صديق طيب لبق. إذاً، إذا لم تصلني منه **أية رسالة**، فهذا يعني أنه خارج جنيف في الوقت الراهن.

والحال أن وضعي تأزّم بشكلٍ لا يصدَّق. فما أن سافرتِ حتى أعلنوا لي في الفندق منذ الصباح الباكر أنهم لن يقدِّموا لي الطعام ولا الشاي ولا القهوة. نزلت كي أستعلم، فقال صاحب الفندق ضخم الجثة إني لم أعد «أستحق» أن يقدموا لي الطعام، وأنهم لن يقدموا لي بعد اليوم إلا الشاي. فها أنا ذا لم آكل شيئاً منذ أمس، ولا أجد ما أقتات عليه غير الشاي. وهو شاي فظيع على كل حال، ويقدمون إليّ السماور من دون سخّان[1]. كما أنهم تخلّوا عن تلميع أحذيتي وتنظيف ملابسي، وعن القدوم حين أدقُّ الجرس. أما الخدم فيعاملونني بمقت غير مبرَّر، مقت ألماني في أبشع صوره. ليس هناك جريمة أكبر بالنسبة إلى الإنسان الألماني من جريمة عدم التوفر على المال، وعدم أداء الفواتير في موعدها المحدَّد. لا شكّ أنه وضع مثير للضحك، لكنه رغم ذلك وضع غير مريح. إذاً، إذا لم يبعث هيرزن بالمال فعليّ أن أتوقع الأسوأ. إنهم قادرون على أن يسلبوني

---

(1) كان دوستويفسكي قد خسرَ كل ما معه من مال في القمار، فوجد نفسه في الفندق من دون مال. فساعدته أبوليناريا بقليل من المال قبل أن تهجره.

حاجياتي، وأن يطردوني من الفندق. بل يمكن أن أتوقع من هؤلاء الأوغاد ما هو أسوأ من ذلك.

إذا وصلتِ إلى باريس، واستطعت بطريقة أو بأخرى أن تحصلي على بعض المال من أصدقائك أو معارفك، فابعثي لي بمئة وخمسين غولدناً على الأكثر، أو بما تريدين على الأقل. إذا بعثت إليّ بمئة وخمسين غولدناً، فسأتخلص من هؤلاء الأوغاد، وأنتقل إلى فندق آخر حيث أستطيع أن أنتظر وصول المال. وذلك لأنه لا يمكن أن لا أحصل على مال في أقرب وقت؛ ومهما يكن الأمر، سأعيد إليك ما أقرضتني قبل أن تهاجري من فرنسا. سأعيده إليك لأنني **متأكّد** أنهم سيبعثون إليّ مالاً من بطرسبورغ (ستبعثه إليّ المكتبة) على عنوان أختك في زيورخ، وسأتوصّل به بعد عشرة أيام على الأكثر. فإن لم أحصل عليه من هذه الطريق، فسأحصل عليه عن طريق هيرزن، إذ أن هذا الأخير حتى إن كان قد غادر جنيف منذ مدة وينوي أن يطول غيابه عنها، فسيبعثون إليه بالرسائل التي ما زالت تصله على عنوانه في جنيف. أما إذا لم يطل غيابه عن جنيف، فسيردّ على رسالتي حال عودته؛ فمهما يكن الأمر، سأتوصل بجوابه عمّا قريب. باختصار، إذا استطعت أن تقدمي لي خدمة صغيرة دون انزعاج، فلا تترددي. ما زلت في العنوان نفسه: فيسبادن - فندق فكتوريا.

إلى اللقاء يا حبيبتي، فأنا لا أصدق أني لن أراك قبل سفرك[1].

أما أنا، فأفضّل أن لا أفكر في نفسي. ها أنا ذا أنفقُ وقتي في

---

(1) كان دوستويفسكي يأمل أن يلتقي أبوليناريا في باريس، لكنهما لم يلتقيا.

الجلوس من دون حراك والقراءة بلا انقطاع كي لا توقظ الحركة رغبتي في الأكل. أضمّك إلى صدري بقوة.

أستحلفك بالرب أن لا تطلعي أحداً على رسالتي هذه، ولا تحكي شيئاً مما ورد فيها. إنها فظيعة.

المخلص دوستويفسكي.

احكِ لي عن سفرك بالتفصيل، واخبريني إن كنت تعرّضت للمشاكل. وبلغي تحياتي لأختك.

إذا بعث هيرزن بالمطلوب قبل أن تأتي رسالتك، فسأوجه إليهم تعليماتي، قبل مغادرة فيسبادن، بأن يبعثوا إليّ بها إلى باريس، لأنني سأسافر إليها في الحال.

إلى أبوليناريا بروكوفييفنا سوسلوفا

فيسبادن، الخميس 24 أغسطس 1865.

ها أنا ذا لا أزال أمطرك برسائلي (ومن دون طوابع بريد دائماً). هل توصلت بالرسالة التي بعثتها أول أمس (الثلاثاء)؟ وهل وصلت أنت نفسك إلى باريس؟ إني أودُّ أن أتوصل بأخبارك في كل حين.

أما أحوالي ففي أوج[1] الفظاعة، يستحيل أن أنزل إلى حضيض

(1) وردت باللاتينية في النص Nec plus ultra.

أسوأ من هذا الحضيض. وراء هذا الحضيض لا يمكن أن نجد إلا مآسي وفظائع لا علم لي بها حتى الآن. لم يصلني شيء من هيرزن حتى الآن، لا خبر ولا جواب. وها قد مرَّ اليوم أسبوع كامل على الرسالة التي بعثت بها إليه. اليوم أيضاً ينقضي الأجل الذي حددته يوم الاثنين لصاحب الفندق. ماذا سيحدث يا ترى؟ لا أعلم. فالساعة لم تتجاوز بعد الواحدة ظهراً.

لا يمكن أن يمتنع هيرزن عن الجواب! أيمكن أن يمتنع عن الجواب؟ لا، مستحيل. وما الذي يمنعه؟ إن علاقتنا طيبة، وقد كنت شاهدة على ذلك. هل أوغر أحدهم صدره ضدّي؟ حتى إن حصل، فلا يمكن ألّا يجيب **بأي شيء** (لا سيما في مثل هذا الموقف). لذلك ما زلت مصرّاً على الاعتقاد حتى الآن بأحد أمرَين: إمّا أنه لم يتوصل برسالتي (والاحتمال هنا ضئيل)، وإمّا أنه لسوء حظي قد غادر جنيف (و هو الأرجح). في هذه الحالة إمّا أنه 1- سافر لمدة قصيرة، وفي هذه الحالة يمكنني أن آمل أن أتلقى رسالته عمّا قريب (عند عودته)، وإمّا أنه 2- سافر لمدة طويلة، وفي هذه الحالة لا شكّ أنهم سيوصلون إليه رسالتي حيثما سافر، وذلك لأنه لا بدَّ أن يكون قد ترك تعليماته بأن يبعث إليه بالرسائل التي تصله. إذاً، ما زال لدي، في هذه الحالة أيضا، أمل في أن أتوصّل بجوابه.

وسوف أعيش على أمل التوصُّل بجوابه طوال هذا الأسبوع، إلى غاية يوم الأحد - ولكنه مجرد أمل. والحال أن وضعي من السوء بحيث أن الأمل وحده لم يعد يكفي كي يتغير.

كل هذا لا يساوي شيئاً إذا ما قورن بما يساورني من هموم. إن حالة الخمول وعدم الحركة تعذبني، تنخرني، كما يعذبني الخوف من

لا جدوى هذا الانتظار، وضياع الوقت في فيسبادن اللعينة التي بتُّ أمقت العيش فيها إلى درجة أني لم أعد راغباً في الخروج من غرفتي. أثناء ذلك، وصلتِ أنت إلى باريس، وقد لا أراك أبداً. ثم إن هيرزن يؤرقني. يا له من ذُلّ ويا لها من معاملة بشعة إذا كان قد توصّل برسالتي **ولم يشأ** أن يجيب! هل أستحق ذلك؟ لماذا؟ بسبب تصرفاتي؟ طيب، لنفترض أن تصرفاتي لم تكن في المستوى اللائق، فما هذه العقلية البرجوازية في التعامل مع الآخرين! فليردَّ عليّ على الأقل، أم أني لا «أستحق» مساعدته (كما لم أستحق أن يُقدّم إليّ الطعام في الفندق). لا، مستحيل أن لا يجيب، لا شكّ أنه خارج جنيف.

كنت قد رجوتك أن تساعديني على الخروج من هذا المأزق إذا استطعت أن تقترضي مالاً من أحد لأجلي. لكن يبدو أن أملي قد خاب يا بوليا. ومع ذلك، حاولي أن تفعلي ذلك من أجلي إذا استطعت. يجب أن تعترفي أنه لمن الصعوبة بمكان أن يصادف المرء وضعاً محرجاً صعباً كالذي أعيشه الآن.

ستكون رسالتي هذه آخر رسالة أوجّهها ما لم يصلني منك أي خبر. يبدو لي أن الرسائل التي تصل إلى فندق فلوريس تبقى عالقة أو تضيع (إذا لم تتواجدي فيه أنت نفسك لحظة وصولها). اعلمي إذاً أني إذا كنت لا أضع طوابع بريد على الرسائل التي أكتب إليك، فلأني لا أملك ولو كوبيكاً واحداً. إنني لا أزال أعيش هنا بلا وجبات، ولا أتناول إلا الشاي صباح مساء، وذلك منذ ثلاثة أيام. والغريب في الأمر أني لا أحسُّ بجوع كبير. الفظيع في الوضع أنهم يضطهدونني، ويرفضون في المساء أحياناً أن يعطوني شمعة إذا لم يتبقَّ لدي من

شمعة الأمس عقباً أستطيع أن أستضيء به. والحال أني أغادر الفندق كل يوم على الساعة الثالثة ظهراً ولا أعود إلا على الساعة السادسة كي لا يبدو عليّ أني لم أتناول وجبة العشاء على الإطلاق. يا له من وضع خليستاكوفي![1].

لا شكّ أن أملاً ضعيفاً ما زال قائماً، فقد أحصل بعد ثمانية أيام أو عشرة على أبعد تقدير ببعض المال من روسيا (عبر زيورخ). وفي انتظار ذلك، في انتظار المساعدة، لا مخرج.

ولكنني ما زلتُ أرفض الاعتقاد أني لن أذهب إلى باريس، وأن لا أراك قبل سفرك. لا يمكن. لا شكّ أن الخمول يساعدُ الخيال على الجنوح والخداع. وأنا الآن إنسان خامل.

الوداع يا حبيبتي. لن أكتب إليك مرة أخرى إلا إذا حدثت أمور استثنائية. **إلى اللقاء.**

المخلص دوستويفسكي.

حاشية: أضمّك إلى صدري بقوة مرة أخرى. أخبريني هل أتَت ناديجدا بروكوفييفنا، ومتى؟ بلغيها تحياتي.

الساعة الرابعة

بوليا، صديقتي الحبيبة، توصّلتُ لتوي بجواب هيرزن. كان في رحلة إلى الجبل، لذلك تأخّر الجواب. بعث إليّ بالمال. أخبرني أن

---

(1) نسبة إلى خليستاكوف، وهو شخصية من شخصيات مسرحية **المفتش العام** لنيكولاي غوغول، وجد نفسه في الموقف ذاته. لم يؤدِّ ما عليه فمنع من وجبة الغداء.

رسالتي وجدَته في ظروف عصيبة، وأنه لا يستطيع أن يبعث إليّ بأربعمئة فلورين، ولكن بمئة أو مئة وخمسين غولدناً فقط إذا كانت تكفي لأتدبّر أموري. ثم دعاني إلى أن لا أغضب... إلخ. غريب! لماذا لم يبعث بالمئة وخمسين غولدناً من قبل ما دام قد قال بنفسه إنه يستطيع أن يبعث بها؟ أهكذا تجري الأمور؟ على كل حال، يبدو بعد أن قرأت رسالته أنه إمّا محرَج لأنه لا يملك مالاً، وإمّا أنه خائف عليه. والحال أنه لا يمكن أن يشكّ أني سأرد الدين ما دامت رسالتي معه. فأنا لست رجلاً مفلساً على كل حال. لا شك أنه في ضيق هو أيضاً.

لا يمكن أن أبعث إليه بطلبي من جديد. فما العمل الآن؟ صديقتي بوليا، ساعديني، أنقذيني! تدبري مئة وخمسين غولدناً من أي جهة، فأنا لا أحتاج الآن إلى أكثر من ذلك. **لا شكّ** أن مالاً سيصل في غضون عشرة أيام، سيبعث فوسكوبوينيكوف إلى زيورخ مالاً باسم أختك (وقد يبعث به قبل ذلك). لن يبعث بالكثير، ولكنه لن يبعث بأقل من مئة وخمسين غولدناً، وسأسدّدها لك. فأنا أبداً لن أضعك، **أنتِ**، في موقف حرج. مستحيل. شاوري أختك في الأمر. وردّي عليّ بأسرع ما يمكن.

المخلص دوستويفسكي.

لم أعد أتبيّن الآن مصيري.

إلى أبوليناريا بروكوفيفنا سوسلوفا

درسدن، 5 مايو 1867.

صديقتي الغالية، توصلت برسالتك[1] في وقت متأخِّر في منزل بازونوف، قبيل سفري إلى الخارج. وبما أني كنت على عجل، لم أستطع الردّ. غادرتُ بطرسبورغ يوم الجمعة العظيمة (14 أبريل، إذا لم تخنّي الذاكرة)، وتطلّب مني الوصول إلى درسدن وقتاً طويلاً، بسبب كثرة التوقفات، بحيث لم يتيسّر لي الحديث معك إلا اليوم.

إذاً، أنت لا تعلمين شيئاً عن أخباري يا عزيزتي، أو لم تكوني تعلمي شيئاً على الأقل حين بعثت لي برسالتك. لقد تزوجت في شهر فبراير الماضي. وكنت مرتبطاً بعقد نشر مع الناشر ستيلوفسكي يلزمني بأن أسلمه رواية جديدة لا يقل حجمها عن عشر ملزمات في الأول من نوفمبر من السنة الماضية، وإلّا طالبني بتعويض فظيع عمّا سيلحقه من خسارة[2]. والحال أني كنت منشغلاً بكتابة رواية تنشَر

(1) ضاعت هذه الرسالة، لكن يمكن أن نخمّن مصيرها من خلال رد فعل آنا سنيتكينا حين اطّلعت على عجل على الرسالة دون علم من زوجها، إذ كتبت في مذكراتها يوم 9 مايو 1867: «بعد أن قرأت الرسالة، كنت من الانفعال بحيث لم أدرِ ما أفعل. شعرت بالبرد، وبكيت. فقد كنت خائفة أن تعود العلاقة بينهما إلى سابق عهدها، ويزول الحب الذي يكنّه لي». وأردفَت معلّقة: «بدا فيديا أثناء هذا اليوم في غاية الغضب، ولم أدرِ من أغضبه، ولا عرفت سبب غضبه».

(2) أحيل القراء لمزيد من المعلومات عن ظروف نشر رواية **المقامر**، إلى المقدمة التي كتبتها بمناسبة صدور ترجمتي لهذه الرواية عن المركز الثقافي العربي.

متسلسلة في مجلة **الرسول الروسي**[1] التي نشرَتْ منها حتى الآن أربعة وعشرين ملزمة، وما زال ينبغي أن أكتب اثنتي عشرة ملزمة أخرى. وها أنا ذا أجدُ نفسي مجبراً على أن أشرع في كتابة عشر ملزمات لستيلوفسكي. في الرابع من أكتوبر، لم أكن قد شرعت في كتابة الرواية، فنصحني ميليوكوف حينئذ أن أملي الرواية على كاتبة بالاختزال، لأتمكّن من كتابتها في وقت أقل بكثير ممّا ستتطلبه لو كتبتها كما تعوّدت أن أكتب. بعث لي أولخين أستاذ الكتابة بالاختزال أحسن تلميذاته، فحصل التفاهُم بيني وبينها على الفور. وشرعنا في العمل في نفس يوم تعارفنا. إن الكاتبة بالاختزال التي لجأتُ إلى خدماتها، واسمها آنا غريغورييفنا سنيتكينا، فتاة شابة لا تخلو من جمال، في العشرين من عمرها، من أسرة محترمة، أنهت بتفوُّق دراستها الإعدادية والثانوية، وتمتاز بطبع في غاية الطيبة والانشراح. سرعان ما شرعنا في العمل بنظام، فانتهيت من إملاء **المقامر** (وقد نشرت) يوم 28 نوفمبر، بعد أربعة وعشرين يوماً من العمل. حين انتهيت من إملاء الرواية، انتبهت إلى أن الكاتبة بالاختزال التي لجأتُ إلى خدماتها تحبني وإن لم تكن قد باحَت بأي شيء من قبل؛ أمّا أنا، فأعجبتُ بها أكثر. كنتُ أشعر بالملل منذ وفاة أخي[2]، وكانت حياتي على العموم صعبة، فاقترحَت عليها أن تتزوجني. فوافقت، وها قد صرنا زوجان. إن فارق العمر بيننا كبير

---

(1) يقصدُ رواية **الجريمة والعقاب** التي ستفرض عليه ظروفه القاهرة أن يكتبها بالموازاة مع رواية **المقامر**.

(2) توفي أخوه الأكبر ميشيل الذي كان أقرب الناس إلى قلبه سنة 1864.

جداً (20 و44)، ولكنني أقتنع يوماً عن يوم أنها ستعيش سعيدة بجانبي. إن لها قلباً طيباً، وتعرفُ كيف تحب.

والآن، إليك وضعي الحالي:

إنك تعلمين إلى حدٍّ ما أن حالتي الصحّية تدهورت إلى الأبد بعد موت أخي بسبب المشاكل التي اعترضتني في المجلة[1]. فوجدتُ نفسي مرغماً على أن أتخلّى عنها مرهقاً من كثرة الصراع ضدّ لا مبالاة القرّاء... إلخ، إلخ. علاوة على ذلك، وجدت نفسي وقد بددت ثلاثة آلاف روبل، دون أي أمل في استعادتها (وكنت حصلت عليها مقابل بيع رواياتي لستيلوفسكي)، من أجل مجلة ليست في الأصل مجلتي، ومن أجل أسرة أخي، ومن أجل سداد ديونه. وقد اضطرني كل ذلك، في نهاية الأمر، إلى مزيد من الديون من أجل المجلة، انضافت إلى ديون أخي التي تعهّدت بأن أسدّدها لأصحابها بدلاً عنه، فبلغ مجمل الديون 15000 روبل. كنت على تلك الحال قبل أن أسافر إلى الخارج سنة 1865 ورأس مالي لا يتجاوز أربعين نابوليونياً ذهبية. وحين وصلت إلى الخارج، أدركت أنه لا يمكنني أن أعتمد إلّا على نفسي في سداد هذا المبلغ. أضيفي إلى ذلك أني كنت كرهتُ الحياة، بعد موت أخي الذي كان سندي وأقرب الناس إلى قلبي. ورغم ذلك، كان الأمل في أن أعثرَ على قلب يتجاوب مع قلبي لا يزال حياً[2]. فما كان مني إلا أن انكببت على العمل، وشرعت أكتب رواية جديدة[3]. وقد خصّصت بها

---

(1) مجلة **العصر** التي أسّسها أخوه ميشيل بعد مصادرة **الزمن** مجلتهما الأولى.

(2) يلمّح إلى رفض أبولينا ريا عرض الزواج الذي تقدم به.

(3) **الجريمة والعقاب**.

الناشر كاتكوف لأنه قدّم لي أكبر مقابل. ورغم أني نجحت في كتابة الروايتَين معاً في الوقت نفسه، فقد استنزفتني الست والثلاثون ملزمة بالإضافة إلى عشر ملزمات من أجل الناشر ستيلوفسكي.

اشتدَّ عليّ مرضي العتيق[1]، ورغم ذلك وجدت في العمل شاغلاً عن مشاكلي، ومنقذاً من السجن الذي يهدّدني إن لم أسدِّد ديون أخي. حصلت مقابل الرواية (ومن ضمنها الطبعة الثانية) على 14000 روبل، مكنتني من العيش ومن سداد 12000 روبل من بين الـ 15000 روبل وهي مجمل ديوني، بحيث لم يتبقَّ في ذمتي من الديون إلّا 3000 روبل بالتمام والكمال. ولكن سيصعب عليّ أداؤها. إن أصحاب الديون كلما سددت ديونهم كلما قلَّ صبرهم وكشّروا عن أنيابهم. ولتعلمي أني لو لم أتعهّد بسداد ديون أخي لما حصلوا على كوبيك واحد. كانوا يعلمون ذلك، فترجّوني أن أتعهّد بتسديد ديون أخي عن طيبة وحسن خاطر، واعدين أن لا يلحّوا في استرداد أموالهم، إلّا أن الـ 12000 روبل التي سددتها لم تزد أصحاب الديون التي لم تسدَّد إلا شراسة. وها أنا ذا عليّ أن أعيش منذ اليوم من دون أية موارد إلى حلول السنة القادمة، هذا إذا انتهيت من كتابة روايتي الجديدة التي شرعت في تأليفها[2]. وكيف أنتهي من كتابتها وأصحاب الديون يلاحقونني؟ لقد أرغموني على أن أسافر (صحبة زوجتي) إلى الخارج. علاوة على ذلك، أتمنّى أن يريحني السفر إلى الخارج من مرضي العتيق الذي كادَ يمنعني

---

(1) يقصد نوبات الصرع التي لازمته طوال حياته.

(2) رواية **الأبله** التي خطرت له فكرتها منذ مدة، لكن ظروفه المالية الصعبة في الخارج وانشغاله بالقمار منعاه من التركيز على كتابتها بجدية.

من الإقبال على العمل في بطرسبورغ حيث كانت النوبات تفاجئني ليلاً كلما أقدمت على الكتابة. لهذه الأسباب هاجرتُ لعلّي أستطيع أن أستقر في الخارج كي تتحسن حالتي الصحية وأقدم على الكتابة. أما عن المال، فقد منحني الناشر كاتكوف مقدّماً عن طيب خاطر[1]. إنه يقدِّمُ للكتّاب أجراً ممتازاً مقابل عملهم. وقد كنت صريحاً مع كاتكوف، فأعلنت له منذ البداية أني من أنصار التيار السلافي، وأني لا أشاطره بعض أفكاره، ما سهّل أمر العلاقة بيننا. بعيداً عن السياسة، لا شكّ أن كاتكوف من أنبل الرجال. والحقيقة أني لم أكن من قبل على علم بحقيقته على الإطلاق. إن عزّة نفسه الكبيرة لتسيء إليه كثيراً، ولكن من ذا الذي ليست لديه عزّة نفس كبيرة[2]؟

خلال أيامي الأخيرة في بطرسبورغ، قبل السفر، التقيت ببريلكينا، ثم زرتها في منزلها[3]. فتحدّثنا عنك كثيراً. إنها تحبّك كثيراً. قالت إنه ليحزنها أن أعيش سعيداً مع امرأة أخرى. سأكتب إليها. إنها تعجبني.

حين قرأت رسالتك حزنتُ لحزنكِ. إنني أجهل كل شيء عن

---

(1) كانت ظروف دوستويفسكي المالية الصعبة تدفعه إلى الحصول على المال من الناشرين قبل أن يشرع في تأليف الرواية التي يعدهم بها، بل حتى قبل أن تتوضّح ملامحها في ذهنه تماماً، في بعض الأحيان.

(2) يحاول دوستويفسكي من خلال عرض أحواله المالية الصعبة على سوسلوفا، ومن خلال مدح كاتكوف، أن يستدرجها إلى أن تغفر له نشر روايته في مجلة كاتكوف **الرسول الروسي** المغالية في الرجعية.

(3) الكاتبة إليزافيتا نيكولايفنا غلوبينا كاتبة روسية من صديقات أبوليناريا سوسلوفا وأختها.

حياتك خلال السنة الأخيرة، وأجهل ما تضمرينه في قلبك. ولكني أستطيع أن أقول، من خلال ما أعرفه عنك، أنه يصعب عليك أن تكوني سعيدة.

آه يا عزيزتي، إنني لا أدعوك إلى سعادة مبتذلة **ضرورية**، وذلك لأنني أحترمُ طبعك المتطلِّب. وإني لعلى يقين أن قلبك **يستحيل** أن يرفض الحياة، وإن كنت أعلم أن الناس بالنسبة إليك إمّا راقون متميّزون وإمّا أوغاد مبتذلون. إني أصدر حُكمي هذا بناء على ما عايشته، ولك أن تستنتجي ممّا قلت ما تريدين استنتاجه.

إلى اللقاء يا صديقتي الخالدة. أخشى أن لا تجدك رسالتي هذه في موسكو، ولتعلمي رغم ذلك أني باقٍ في درسدن إلى الثامن من شهر مايو بحسب روزنامتنا[1] (على الأقل، وربما أمكث في درسدن وقتاً أطول). إذاً، إذا كنت ترغبين في الجواب على رسالتي، فابعثي بجوابك **بمجرد وصول** رسالتي هذه. وإليك عنواني: **صندوق بريد دوستويفسكي، درسدن، ألمانيا (ساكس)**[2]. أما عناويني مستقبلاً، فسأبعث لك بها في حينها. الوداع يا صديقتي. أشدّ على يدك وأقبّلُها.

المخلص دوستويفسكي.

مكتبة
t.me/t_pdf

(1) معلوم أن التقويم القديم الذي كان معمولاً به في روسيا ينقص 12 يوماً عن التقويم الذي كان معمولاً به في أغلب الدول الأوروبية.

(2) وردَ العنوان بأحرف لاتينية في النص.

إلى ناديجدا بروكوفييفنا سوسلوفا[1]

سان بطرسبورغ، 19 أبريل 1865.

عزيزتي المحترمة ناديجدا بروكوفييفنا

أضمُّ إلى هذه الرسالة الرسالةَ التي بعثت بها إلى أبولينااريا، أو بالأحرى نسخة طبق الأصل من رسالة بعثت بها اليوم إلى أبولينااريا على عنوانها في مونبلييه[2]. بما أنك أخبرتني أنها لن تتأخّر في السفر إليك في زيورخ، فمن الممكن أن لا تتوصّل برسالتي الموجّهة إليها على عنوانها في مونبلييه قبل سفرها. والحال أني أبعثُ لك بنسخة من تلك الرسالة، لأني أحرص على أن تتوصل برسالتي. أرجوك إذاً أن تسلّميها إياها عند وصولها. كما أرجو أن تقرئي هذه النسخة أنت أيضاً. فستعثرين فيها على أجوبة واضحة عن كل الأسئلة التي طرحت عليّ، أي «هل أحب الاستمتاع بمعاناة الآخرين ودموعهم؟»... إلخ، إلى جانب إجابات أخرى متعلقة بنظرتي إلى معنى الوقاحة والفسق.

أضيف إلى علمك أنك لم تتعرّفي إليّ منذ سنة فقط، على حدٍّ

---

(1) ناديجدا بروكوفييفنا سوسلوفا (1843-1918) أخت أبولينااريا الكبرى، جمعتها علاقة صداقة بدوستويفسكي في نهاية سنة 1863. وقد أعجب دوستويفسكي بروحها القوية وشجاعتها، فقد كانت من أصل قروي واستطاعت رغم ذلك أن تواصل دراستها الثانوية، وأن تصبح مستمعة حرة في أكاديمية الطب التشريحي والصيدلة بسان بطرسبورغ قبل أن تواصل دراستها في جامعة زيورخ حيث حصلت على الدكتوراه، فأصبحت أول امرأة تحصل على دكتوراه في الطب في روسيا.

(2) لم تصلنا الرسالة والنسخة أيضاً، للأسف.

علمي، وأني كنت ألجأ إليك ناشداً راحتي الروحية كلّما ضاق بي العيش، بل لم أكن ألجأ في الآونة الأخيرة إلّا إليك، إليك وحدك، حين ينقبضُ قلبي من شدة المعاناة. إنك رأيتني في تلك اللحظات التي كنت خلالها صادقاً كل الصدق، لذلك تستطيعين أن تحكمي إن كنت أستمتع بمعاناة الآخرين، وهل أنا رجل وقح (في أعماقي)، وعديم الرحمة.

إن أبوليناريا أنانية إلى حدٍّ المرض. وإن أنانيتها، وعزّة نفسها، لفي غاية الضخامة. فهي تريد أن تحصل من الآخرين على كل شيء، وتريد أن يتمتّعوا بالكمال، ولا تغفر لهم أصغر عيوبهم بدعوى أن الإنسان يستطيع أن يتمتّع بأخلاق سامية. أما هي فتتملّص من كل التزام اتجاه الآخرين. إنها لا تزال حتى اليوم تلومني على أنني لم أستحقّ أن تحبني، وتشكو من ذلك، وتوبّخني بلا هوادة. لقد استقبلتني في باريس، سنة 63، بهذه الكلمات: «لقد وصلت متأخّراً قليلاً»، معلنة بذلك أنها أحبت رجلاً غيري، في حين أنها كانت قد كتبت إليّ قبل أسبوعَين فقط أنها تحبني بشغف. لست ألومها الآن على أنها أحبّت غيري، ولكن على تلك الأسطر الأربعة التي بعثت بها إليّ على عنواني في الفندق، ومن ضمنها هذه الجملة العنيفة: «لقد وصلت متأخّراً قليلاً».

أستطيع أن أكتبَ إليك الآن عن كل ما حدث في روما، وعن حياتي إلى جانبها في تورينو، ونابولي، لكن ما الفائدة؟ ولماذا أحكي، وقد حكيت لك من ذلك الكثير أثناء لقاءاتنا السابقة؟

ما زلت إلى اليوم أحبها، أحبها كثيراً، ولكنني أصبحت أرغب أن لا أحبها، **فهي لا تستحق** حبّاً كهذا.

إنني أرثيها، لأنني أتنبأ بأنها ستعيش حياة تعيسة شقية[1]. لن تعثر على أي صديق في أي مكان أبداً، ولن تعرف الطريق إلى السعادة. إن من يطالب الآخرين بالالتزام بكل واجباتهم، بينما هو لا يلتزم بأي منها، لن يعيش سعيداً أبداً.

قد تكون رسالتي التي اشتكت منها محمّلة بنبرة غاضبة، لكنها ليست وقحة على كل حال. كل ما في الأمر أنها تعتبر شجاعتي في معارضتها، وفي البوح بما أشعر به من ألم، وقاحة. لقد عاملتني باستعلاء دوماً، وها هي ذي تقول إنها جُرحَت لأني قررت أخيراً أن أعبِّر عما أشعر به أنا أيضاً، وأن أشكو، وأن أعارضها. إنها ترفض المساواة في علاقتنا، ولا تعاملني بإنسانية، وإن كانت تعلم أني ما زلت أحبها. لماذا تصرُّ على تعذيبي إذاً؟ من حقها أن تكفَّ عن حبي، ولكن فلتكفّ عن تعذيبي أيضاً. والحال أن الكثير ممّا ورد في رسالتي إليها لم أقله إلّا على سبيل الهزل. فها هي ذي قد دفعها غضبها إلى أن ترى في الهزل جِدّاً ووقاحة.

فلأكتفِ بما قلت الآن. أنت لا تحاكمينني كما تحاكميني أبوليناريا، لذلك أحترمك كثيراً وأقدّرك. إنك إنسانة نادرة من بين كل من عرفتهم في حياتي، لذلك أرغب أن أحافظ على مكانتي في قلبك. إنني حريص كل الحرص على رأيك في شخصي، وعلى الصورة التي ستحتفظين بها عني في ذاكرتك. أقول ذلك بكل

---

(1) تحققت نبوءة دوستويفسكي للأسف، إذ عاشت أبوليناريا جُلّ حياتها في ضواحي روسيا مراقبة من البوليس السري، وتزوجت الفيلسوف روزانوف وما لبثت أن هجرته، ورفضت الطلاق من شدة الكراهية التي تكنّها له...

صراحة، لأنك تعلمين جيداً أني لا أسعى إلى أن أنتزع منك شيئاً، أو أحصل على شيء، لذلك لا يمكنك أن تعزي كلامي إلى نوع من الإطراء والمجاملة، بل إلى ما يجيشُ به صدري من صدق.

أخبرتني أختك في رسالتها أنك ستبقين في زيورخ مدة طويلة. اسمعي إلى ما سأقوله إذاً (إذا استطعت وأردت)، اكتبي إليّ من وقت لآخر، لأعرف أخبارك. إنني لا أريد أن تجهدي نفسك في مراسلتي، بل لست أريد إلّا أن تتذكريني أحياناً. أما أنا، فسأكون دائماً في غاية السعادة أن تصلني أخبارك.

أريد أن أذكّرك مرة أخرى بنصائحي: لا تعتزلي الناس، وانفتحي على الطبيعة، انفتحي ولو قليلاً على العالم الخارجي وعلى كل الأشياء. إن **الحياة** الخارجية، الحياة الحقيقية، تطوّر طبعنا الإنساني كثيراً، وتمدّنا بالأدوات التي تساعدنا في الحياة. أرجوك، لا تسخري مني كثيراً.

إني أعيش في وضع رهيب لا أعلم كيف أستطيع أن أخرج منه[1]. وإن في رسالتي إلى أبوليناريا ما يمكّنك من الاطّلاع على هذا الوضع.

لم يتغيّر عنواني حتى الآن. إذا راسلتني عمّا قريب، فسأجيبك، وأحاول أن أبعث إليك بعنوان **دائم** تستطيعين أن تبعثي برسائلك إليه.

إلى اللقاء إذاً. ولكن متى؟ وداعاً، وأتمنى أن تعيشي سعيدة

---

(1) تلميح من دوستويفسكي إلى توقُّف مجلة **العصر** عن الصدور، وما ترتّب على ذلك من ديون ترهقه.

طوال حياتك! أشدُّ على يدك بحرارة متمنّياً أن ألتقيك يوماً. وإنني لأتساءل الآن: كيف سيكون حالنا معاً حين سنلتقي؟ لن أنساك أبداً.
المخلص دوستويفسكي.

حاشية: إنك فتاة شابة، في ريعان شبابك، في بداية الإقبال على الحياة. فيا لها من سعادة أن يكون الإنسان في مقتبل العمر! لا تضيّعي حياتك، وحافظي على نقاء روحك. وليكن إيمانك بالحقيقة قوياً، لكن حاولي **أن تبحثي عنها بإصرار**، فمن السهل أن يزيغ المرء عن جادة الصواب. لكني أعلم أن قلبك الطيب سيحول دون ابتعادك عن جادة الصواب.

أما أنا، فأشعر أني وصلت إلى نهاية الطريق. لكن لا يهم. يكفيني أنك فتاة شابة في مقتبل العمر، وأنك عزيزة على قلبي وأحبك كما أحب أقرب أخواتي الحبيبات إلى قلبي.

مكتبة
t.me/t_pdf

المراجع

- Apollinaria Prokofievna Souslova
Journal: Archives du passé
Moscou, 1928

- Anna Grigorievna Dostoïevskaïa
Dostoïevski: Mémoires d'une vie
Traduit par André Beucler; préface de Jacques Catteau
Mémoire du Livre, Paris, 2001 (première édition 1930)

- Anna Grigorievna Dostoïevskaïa
Carnets, tomes 1 et 2
Éditions Radouga, Moscou

- Aimée Dostoïewsky
Vie de Dostoïewsky par sa fille
Éditions Émile-Paul Frères, Paris, 1926

- Igor Volguine
La dernière année de Dostoïevski
Traduit du russe par Anne-Marie Tatsis-Botton
Éditions de Fallois / L'Âge d'Homme, 1994

- Joseph Frank
Dostoevsky: The Mantle of the Prophet (1871-1881)
Princeton University Press, Princeton and Oxford, 2003

- Dominique Arban
Dostoïevski « le coupable »
Julliard, Paris, 1953

- Henri Troyat
Dostoïevski
Librairie Arthème Fayard, Paris, 1946

- Jean Drouilly
La pensée politique et religieuse de F. M. Dostoïevski
Librairie des cinq continents, Paris, 1971

- Jacques Catteau
La création littéraire chez Dostoïevski
Institut d'études slaves, Paris, 1978

- Constantin Motchoulski
Dostoïevski: L'homme et l'œuvre
Payot, Paris, 1963

- Leonid Grossman
Dostoïevski
Traduit du russe par Michèle Kahn
Parangon, Paris, 2003

- Louis Allain
Dostoïevski et l'Autre
Presses universitaires de Lille, 1984

- Dostoïevski
  Correspondance
  Édition en trois tomes
  Traduit du russe par Anne Coldefy-Faucard
  Présenté et annoté par Jacques Catteau
  Bartillat, Paris, 1998-2003

- Dostoïevski
  Correspondance
  Édition en quatre tomes
  Traduit du russe par Dominique Arban et Nina Gourfinkel
  Calmann-Lévy, Paris, 1949-1961

مكتبة

أبوليناريا سوسلوفا

سنواتي مع دوستويفسكي

كانت حبيبته وملهمته و«صديقته الخالدة». كان لها تأثير كبير على أعماله الأدبية، وقد استوحى منها معظم بطلاته. ورغم أنها رفضت الزواج منه، كان تأثيرها على حياته أكبر من تأثير زوجتيه. إنها أبوليناريا سوسلوفا، الطالبة الثائرة التي حلمت أن تصبح كاتبة.

«أحَبَّها إلى الآن، أحَبَّها كثيراً، وتمنى لو أنه لم يحبّها». إنه فيودور دوستويفسكي العظيم، عملاق الأدب الروسي وخبير النفس البشرية، التي اعترف له فرويد ونيتشه بمعرفته العميقة لخباياها.

بالرغم من فارق السن بينهما، عاشا قصة حب قوية، غامضة ومضطربة، حيّرت الدارسين بأسرارها، قصة تكشف لنا هذه اليوميّات شذرات منها، وتقدِّم لنا شهادة عن حياة المثقفين الروس في المهجر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

ولعل أمتع ما في هذه اليوميّات أنها تجعل من دوستويفسكي نفسه شخصية دوستويفسكية، يقف أمامنا بكل ازدواجيته وتناقضاته: بنبله ووضاعته، بعبقريته وعيوبه، بغنى أدبه وافتقاره إلى المال إلى درجة «يستحيل أن تنزل به إلى حضيض أسوأ من هذا الحضيض»، فهو عاش حياة زاخرة، عملاً بالنصيحة التي قدّمها لصديقته في آخر هذا الكتاب:

«لا تعتزلي الناس، وانفتحي على الطبيعة، انفتحي ولو قليلاً على العالم الخارجي وعلى كل الأشياء. إن الحياة الخارجية، الحياة الحقيقية، تطوِّر طبعنا الإنساني كثيراً، وتمدّنا بالأدوات التي تساعدنا في الحياة».

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com

telegram @t_pdf